المَرْقَاةُ

المِرْقَاةُ

د. سُلَيْمَان بْنُ نَاصِرٍ العَبُّودِي

ح شركة آفاق المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبودي، سليمان بن ناصر

المرقاة. / سليمان بن ناصر العبودي - الرياض، ١٤٤٣هـ

ص ٢٠٠؛ ١٤×٢١ سم

ردمك: ٠-٣-٩١٦٦٠-٦٠٣-٩٧٨

١ - الجدل   ٢ - المناظرات

أ. العنوان

ديوي ١٦٨   ١٤٤٣/٨٧١

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٨٧١

ردمك: ٠-٣-٩١٦٦٠-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الخامسة

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

العوارض

إلى والدي الجليل الدكتور ناصر العبودي

أهدي هذا الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين .. أما بعد:

فقد تأملتُ كثيرًا في مساراتِ التكوين العلمي وآليَّاتِه وأدواتِه، وسرَّحتُ النَّظَرَ إلىٰ التعقيدات والتحديات والمصاعب التي يواجهها طالب العلم في هذه الأجواء الجدليَّة الصاخبة، كما كنت أتملَّىٰ سحائب الإيمان وهي تغيث مَحلَّ القلوب، وما ينبت فيها من الآفات والغوائل، ثم أرجعت البصرَ كرَّتين متمعِّنًا في الدلائلِ الشرعية ومُستلهِمًا منَ الإضاءات المسلكيَّة مِرقاةً يعرجُ بها طالب العلم من هذهِ العوالِق، فجاء في اثنَي عشر فصلًا نظمتُها في هذا العِقْدِ.

فالكتابُ وريثُ تأملاتٍ حاولتُ من خلالها عقدَ فصولٍ مدلَّلةٍ بالشواهدِ علىٰ مشكلاتٍ وتساؤلاتٍ في أربعة محاور: مفاتيح التكوين العلمي، والآثار السلبيَّة الخفيَّة للسِّجال والجدَل، وغيوث الإيمان الربانيَّة، وما يعرِض للقلوب من الآفات.

هذه التساؤلات مما مرَّ بي شخصيًا، أو سمعتُها من إخواني الطامِحين لبلوغِ مراتب علميةٍ رفيعة في العلم والعمل، وحرصتُ فيها علىٰ معالجةِ الإشكال المنهجيّ بعيدًا عن إسقاطِه علىٰ حالاتٍ عارِضة.

وقد رأيت أن أبدأ فيها بمحور بالتكوين، ثم محور السِّجال، ثم محور البوارق، ثم محور العوارِض، وذلك لأن الأجواء السِّجاليَّة هي المقابل السّلبي للتكوين العلمي، والعوارض النفسية هي المقابل السّلبي للبوارق الإيمانية.

وأسأل الله تعالىٰ أن يجعل هذا الكتاب في ميزان حسناتنا جميعا يوم نفِد إليه في ساعةٍ قريبة، عائذا به سبحانه من أن يكون حظُّنا من المطالبِ العالية والمراقي السامِيَة مجرَّدَ التَّفَنُّنِ في توصيفها للعابرين كما تلتهم الشموع أطرافَها للمُدْلجين.

د. سُليمَان بن نَاصِر العبُودِي

s.n.alobodi@gmail.com

التكوين

المعرفة الشاردة

(إنّ الرَّجلَ لَيطلب وقلبه شِعبٌ مِنَ الشعَاب، ثم لَا يَلبَثُ أَن يَصِيرَ وَاديا، وَلَا يُوضَعُ فِيه شَيء إِلا التهمَه).

الزهري (١٢٤هـ)

أحد الأصدقاء كادتْ تندلِق شفَتاه من فرطِ الاندِهَاش وهو يروي حكايتَه مع أحدِ العلماءِ وقوةِ استحضاره للمعارف التي قرأها، والتي بَعُد عهده بها، كفائدةٍ لطيفةٍ في مَسألةٍ جزئيةٍ ليست من صُلبِ اهتماماته، لكنه حينما يحتاجها تجري علىٰ خاطره دون عناء، ويوردُها لِسانه بطَلاقة لافتة..كان يقول: سألت الشيخ عن مسألةٍ من مسائل العلم فأجابني، ثم أحالَ الجوابَ إلىٰ كتابٍ.. هذا الكتابُ كنت قرأته كاملا، بل همَّشتُ علىٰ طرَّتِهِ الفوائدَ قبل أن أسأل الشيخَ، ومع ذلك شردَتْ تلك الفائدة التي ذكرَها الشيخُ من ذهني، وأمست مطمورةً أغرقها طوفانُ النِّسيَان!

يتساءل صاحبي: كيف يستطيع هذا العالم أن يستذكر من بين مقروءاته الهائلة فائدةً لطيفةً من بين السطور، وبالذات حينما تكون هذه الفائدة من كتابٍ ليس من الكتب الأصول بالنسبة للعالم؟

وهذا التساؤل مألوفٌ في مدارِج التعلّم، فليس جديدًا مطلقا علىٰ مَسمَعي، ولا أظنه جديدا علىٰ القارئ، فكثيرًا ما ألمحُ مَن يطرح أسئلة مشابهة، كمن يقول: أقرأ كثيرا ولا أستفيد فما الحل؟ ومن يقول: منذُ إغلاقي للكتاب لا أذكر المعلوماتِ التي بين دفَّتيه! ومَن يقول: هذه الفائدة سمعتها كثيرًا لكنها ترزح في معتقلاتِ النسيان عند تطلُّبِها..،

وكلُّ هؤلاء المتسائلين تَنْضَمُّ أشداقُهم باستغرابٍ كلَّما رأوا عالِما تتدفَّقُ العلومُ والفوائدُ من شَفَتيهِ بغزارةٍ كما يتحدَّرُ الماءُ من صَبَب!

والتساؤلُ يُطرَحُ عادةً علىٰ شِقَّين: فالشقُّ الأول يتناول اضمحلال المعرفة وشرودها بعد وجودها، والشقُّ الثاني يتناول طرائق استحضار المعارف الموجودةِ الكامنة، فالأول يبحث في تَطَلُّبِ المفقود، والثاني يبحث في استثمار الموجود، وقد عقدتُّ هذا الفصلَ جوابا علىٰ الشقِّ الأول، وعقدت الفصلَ القادمَ جوابا علىٰ الشِّقِّ الثاني، ثم عقدتُّ الفصل الثالث لبحثِ تَفَاضُلِ هذه المعارِف التي يختزنها طالب العلم.

والتمييز بين مرتبة اضمحلال المعرفة وشرودها بعد وجودِها، وبين مرتبة فوات استحضارها مع وجودها سَبَقَ إليه أهلُ العلم، فيفرّق الأصوليون بين النسيان والسهو، فالسهو عندهم أن يذهل عن الموجود، والنسيان أن يفقده مع تطلّبه إياه، ولذلك يقول السيوطي في نظم الكوكب:

والسهوُ أن يذهل عن معلومِهِ وفـارقَ النِّسـيانُ في عمومـه

الأرضية العلمية:

أما الشق الأول من التساؤل فكان في ذهني معنىٰ يتردَّدُ أشبه ما يكون جوابًا للسؤال.. وهو أنَّ بذورَ العلم عزيزةٌ لا تنبت في غير أرضِها، وحين تمتلك الأرضية العلمية لعلمٍ ما تستطيع أن تبني فوقها الأبراج العاجية من المعارف وشواهق المعلومات دونما عناء،

فالمعارف بطبيعتها سريعةُ التناسل كثيرةُ التوالد ولكنها لا تتخلَّق خارج جدار الرَّحِم!

إن الأرضية العلمية التي أعنيها هي أصول المسائل في باب ما من أبواب العلم، وهي تلك التي ينفق طالب العلم لأجلها وجه النهار وآخره، ثم إذا منَّ الله عليه باستقرارها في صدره وثباتِها في عقله؛ أصبحت مغناطيسا جاذِبًا لمعادنِ المعلومات العابرة، لا يكاد ينسىٰ منها شيئا، فالعلم **كلما استقرت أصوله حول بابٍ ما؛ لانَت فروعه**..

لدي قناعة تامة أن الفارق بين الناس في هذا الباب ليس متعلقا -دائما- بالفوارق الذهنية والقدرات العقلية، لذلك تجد بعضَ العوام يستقر في ذهنه من المعلومات في شؤون شتىٰ أكثر عددًا مما هو مستقر في ذهن بعض طلاب العلم، فتجد عاميًّا يتحدث عن تفاصيل السيارات وأنواع المحركات وطرائق الصيانة ودقائق المكنات بشكلٍ مدهش، وهذا يدل علىٰ أن الفارق ليس ذهنيا في الغالب، وتجد أيضاً من العوام من يتقن لأول وهلة أسماء رجال القبائل والأقارب والأسر والبيوت والأنساب وما بينها من الأسباب ما يقارب ما يحفظه بعض المحدثين من أسماء رجال الرواية والإسناد، والباب واحد -فكلاهما أسماء- لكن تباينت الاهتمامات!

سأضرب مثالا يقرِّب المقصود وإن كان لا يفي بنقل الصورة من كل زواياها، ثم سأذكر وسيلة من وسائل ضبط أصول العلم علىٰ سبيل الإشارة لا البسط..

لو قيل لأحد لم يسمع يوما ما بالفقيه الشافعي المزني:

١- هناك فقيه حاذق اسمه إسماعيل بن يحيىٰ المزني.

٢- من كبار الآخذين عن الشافعي.

٣- نصر مذهب إمامه، وقال الشافعي عنه: المُزنيّ ناصِر مذهبي.

٤- كانت له مناظرات عديدة، وكان قويَّ الحجة، دقيق الفهم، يلتقط المعانِي الدقيقة.

٥- له كتاب المختصر في مذهب الشافعي.

فلن يبقىٰ معه بعد أسبوع عن هذا الفقيه -إن بقيَ- إلا اسمه!

لكن لو قيل لآخر لديه تصور دقيق وخلفيَّة مُسبَقَة عن المزني أو قرأ له مصنفا أو حفظ له متنا، ثم ذُكر له عنه -ولو معلومةً عابرة- بأنه مثلا: خالُ أبي جعفر الطحاوي! أو أنه هو والربيع بن سليمان رضِيعان! فنسيان هذه المعلومة بالنسبة له أصعب من تذكرها!

هل أتيتُ بجديد؟

لا طبعا.. فهذه هي نفسها فِكرة التفقُّه علىٰ قول واحد ثم تَصعيد النَّظَر إلىٰ ما وراء ذلك من الخلاف النازل والعالي ..؛ لأن المطالعَ لفقه المذاهب يَبني علىٰ أُسُسٍ موجودةٍ ويضمّ النظير للنظير ولا يَكاد يشكل عليه شيء بعد ضبط كتابٍ ما..

ولنابغةِ المغرب الموسوعي الإمام أبي عمر ابن عبد البر في كتابه التمهيد إشارة لطيفة لمعنىٰ ضبط الأصول واستذكار الفروع، فبعد أن أورد حديث عَبدِ الله بن عُمر أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنما مثل صاحب القرآن، كمثل صاحب الإبل المعقَّلة، إن عاهد عليها، أمسكها، وإن أطلقها ذهبت» تحدث عن ذهاب القرآن إن لم يتعاهد فكيف بغيره من العلوم ثم قال:

(وخير العلوم مَا ضبط أصله واستذكر فرعه، وقاد إلىٰ الله تعالىٰ ودلَّ علىٰ ما يرضاه)[1]، فالعقل بطبعه لا يقيم الأصل إلا بمكابدة وعناء ثم إذا استقرَّ الأصل؛ أقام عليه بنيان الفروع وربط بين المعلومات وضم النظير إلىٰ النظير وقسَّم وفرزَ ورتَّبَ بطريقة تلقائية مدهشة لمن تأمل!

كان لديَّ بعضُ إيمانٍ بأنَّ العلمَ كلما كثُر سهُلَ حفظه، وقادت أصولُ المسائل رقاب أخواتها داخل الذِّهن، وأن المتعلِّمَ كلما ضبطَ وعانىٰ قدرا واسعا من المسائل وأتقن كثيرا من الأبواب أصبح يحفظ في ذلك الباب من مرَّةٍ ومرتين.. ونظرةٍ ونظرتين! ثم وجدت إشاراتٍ لطيفةٍ لعدد من الأعلام في هذا الباب، من ذلك ما ذكره أبو عثمان الجاحظ في رسائله تنظيرا لهذا المعنىٰ ونقله عن أبي بكر ابن الأصم؛ قال الجاحظ: (ذكر أبو بكر ابنُ الأصم ابنَ المقفع فقال: ما رأيت شيئا

(١) التمهيد (٩ / ١٤) ط. الفرقان.

إلا وقليله أخف من كثيره إلا العلم، فإنه كلما كثُر خفَّ حمله..)[1]، وقال البرهان الزرنوجي الحنفي: (كان أستاذنا القاضي.. يقول: ينبغي للمتفقه أن يحفظ كتابا واحدا من كتب الفقه دائما، فيتيسر له بعد ذلك حفظ ما سمع من الفقه)[2] نَعم.. فهذا المعنىٰ في ذكر خِـفَّة العلم إذا كَثُر؛ هو أمثلُ التفسيرات لضبطِ العالم دقائقَ العلم في أبوابٍ أتقن أصولَها، ولا شك أن ثمةَ تفسيرات أخرىٰ عاضِدة تتعلق بتباين القدرات الذاتية وتفاوت الطاقات العقلية وقوة الصبر والاحتمال! فمن التسطيح توحيد أسباب الظواهر القابلة للبسط والعدِّ!

سأستبق السؤال الذي ربما يَرِد في ذِهن القارئ عند هذا الموضع من الفصل، وهو **كيف يضبط طالب العلم أصلًا**؟

في الحقيقة جواب هذا السؤال واسعُ الخطو طويلُ الذيل، لذا فلن أشير إلا لوسيلةٍ واحدة من وسائل ضَبطِ الأصول كان بعض العلماء قديما وحديثا حفيًا بها، ومن جربها وجدَ ثمرتها يانعة، ولكنها كشأن بقية الوسائل في الطَّلَب نجاحُها رَهين قدرةِ الطالب علىٰ الجلَد واحتمالِ إدامةِ النظر في كتاب واحدٍ، فأين من يصبر لموسم القطاف؟!

ألا وهي وسيلة «التلخيص والاختصار»، وهـذه الوسيلة في ضبط المعارف كانت شائعةً لدىٰ العلماء في القديم والحديث، وهم

---

(١) الرسائل (٢/ ١٩٥).

(٢) تعليم المتعلم (٦١).

يتفاوتون في مدىٰ استعمالها، لكن كانت لبعضهم حفاوةٌ زائدة بها، وأذكر من أولئك مؤرخ الإسلام الذهبي رحمه الله، فقد يستغرب الناظر من كثرة مختصراته للكتب التي أنجزها أيامَ الطلب، وهو خلالَ كتبه يشيرُ إلىٰ بعض مختصراته، ويومئ أحيانا بذكر الباعث لهذا الاختصار، فحينما تحدث عن بعض مسائل الإيمان، قال:

(هذه مسألة كبيرة، قد صنف فيها العلماء كتبا، وجَمع فِيهَا الإِمَام أَبُو العَبَّاسِ شَيخنَا مجلدا حَافِلا قَد اختَصَرتُهُ)[1]، وحين تطرق لكتاب المستدرك لأبي عبدالله الحاكم في السير قال: (وَبِكلّ حَال فَهوَ كِتَاب مُفيدٌ قَد اختصرتُهُ)[2]، وحين أراد الدخول في كتابه «ميزان الاعتدال» قال: (وصنف أبو الفرج ابن الجوزي كتابا كبيرا في ذلك كنت اختصرته أولا ثم ذيَّلت عليه ذيلًا بعد ذيل)[3]، فكان رحمه الله كثير التلخيص للكتب، ومطيلا لأمَدِ التفتيش في كتابٍ واحد، حتىٰ قال عنه مؤرخ مكة تقي الدين الفاسي: (قل أن رأىٰ كتابا لغيره إلا اختصره أو استدرك فيه أو انتقىٰ منه)[4]، فلم يكن الذهبيّ -مثلَنا- يسترق النظرَ استراقا لعيونِ المؤلفات والتصانيف، ثم يطويها وراء ظهره طيًا إلىٰ ما سواها!

---

(١) السير (٢١/ ٤٣٢).

(٢) المرجع السابق (٣٣/ ١٦٩).

(٣) ميزان الاعتدال (١/ ٢).

(٤) تعريف ذوي العلا (٤٩).

وربما شاع اختصار الذهبي للكتاب ونسي الناسُ أصله، ومن ذلك ما قاله أبو الحجاج المزي عن الذهبي: (الشيخ شمس الدين إذا اختصر شيئا أذهبه) فاختلف الناس هل أراد المزِّي بـ «أذهبه»: أعدمه؛ أم أراد حسَّنه بالذهب؟ قال الفاسي: الأول أقرب[١].

ولم يكن الذهبيُّ وحدَه سالكا طريقة الاختصار في الطلب والتصنيف، فهذا ابن منظور -صاحب اللسان- يقول عنه الصفدي: **(لا أعرف في الأدب وغيره كتاباً مطولا إلا وقد اختصره وزوّق عنقوده واعتصره)**[٢].

ومن مقاصدِ الاختصار عند العلماءِ حذفُ الحشو والزائد والمكرر والاقتصار علىٰ ما يراه المختصر أصول العلم ليتسنَّىٰ ضبطها ويسهل الإحاطةُ بها، ويصرح بعض المختصِرين بهذا المقصد، ومن ذلك ما ذكره محمد بن عبد الرحمن الدندري لما اختصر نظمَ «الملحة في الإعراب»؛ قال في أوَّلِ اختصاره:

وها أنا اخترتُ اختصارَ الملحة   أمنحــه الطــلاب فهــو مِنْحــهْ

وفي الذي اختصرته الحشو سقط   ليقـرب الحفـظ ويبعـد الغلـط[٣]

ومن المُدْرَكِ أن نمط الاختصار والتلخيص للكتب الذائع خلال التاريخ الإسلامي؛ لم يكن بالضرورة بقصد التحصيل، وإنما هو نمط

(١) المرجع السابق (٤٨).
(٢) أعيان العصر (٥/ ٢٧٠).
(٣) أعيان العصر للصفدي (٤/ ٤٩١).

من أنماط التأليف العريق في التراث، لكن كانَ من أهل العلم قديما وحديثا مَنْ وَجَدَ في أسلوب التلخيص نفعا عظيما لنفسه حتىٰ لا يكاد يعدل به وسيلةً أخرىٰ من وسائل الطلب، فالكتاب الذي تلخصه يعادل قراءتك له ثلاث مرات بل أزيَد، لأن الاختصار يأتي لاحقا بعد القراءة الأولىٰ الفاحصة، ثم إذا انتهىٰ الطالب من التلخيص أعاد النظر فيه -أي التلخيص- مرةً ومرتين وهذه النظرة تجمع أصول مسائل الملخص بإذن الله في القلب، فبعد هذا يصبح للطالب أرضية علمية وتذوق خاص للباب الذي لخَّصه وتكون له فيه ملكة قابلة للتنامي، وهنا بعد وقت من مراجعة التلخيص يصل لمرحلة استقرار الفوائد في الباب لأدنىٰ نظرة، وليس بالضرورة أن يلخص المتعلّم كتابا كاملا؛ فربما لخَّص مسألةً من المسائل عقدية أو فقهية أو أصولية أو غير ذلك.. كانت مشكلةً عنده، وربما بنىٰ تلخيصه للمسألة ابتداءً علىٰ كتابٍ بعينه هو عمدةٌ في هذه المسألة، ثم جمع الفوائد والإضافات والتلخيصات والاستدراكات التي لم يوردها صاحب الكتاب، ثم درس ملخَّصَه، ثم أعاد النظر فيه بعد مدة من اختمار المسائل في الذهن، فيكتشف أن بين يديه كتابا علىٰ وشك الولادة، وربما لم يكتب في تلك المسألة نحو هذا الكتاب الوليد! ومن أهل العلم من كان يشير إلىٰ أنه عَمَد إلىٰ اختصار موضع أو مسألة؛ كما ذكر النووي أنه عَمَد إلىٰ تلخيص ما ذكره ابن عبد البر في مسألة من المسائل فقال: (قد أطنب أعلام المحدثين في إيضاح هذا، ومن أحسنهم له إيضاحًا

الحافظ أبو عمر ابن عبد البر في كتاب التمهيد في شرح الموطأ، وقد لخصت مقاصدَ ما ذكره)[1].

كلُّ ما أردت أن أقوله في هذه الفصلِ من الكتاب أن كثيرا من الأذهان شديدة التقارب وأن غالبَ العقول بالغةُ التشابه، وإنما الفوارقُ بين الناس فيما يتعلق بضبطِ المعرفة تدورُ في كثيرٍ من الأحيان حول مدىٰ تهيئةِ الأرضيَّة العلمية ومقدار الصبر الذاتي ومستوىٰ التجلد والاحتمال، فعلىٰ طالب العلم أن يفتح الخزانة قبل أن يجمع الثروة!

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٨٥).

المعرفة الكامنة

(كلما قوي الشعور بالمحبوب؛ اشتد سَفَر القلب إليه، وكلما اشتغل الفكر به؛ ازداد الشعور به والبصيرة فيه والتذكُّرِ له)

ابن القيم (٧٥١هـ)

ظلَّ التصور القديم للعالم بأنه صاحب الهدرِ المعلوماتي وأن أعلم أهل الأرض هم أكثرهم حفظا وأقدرُهم علىٰ سرد المقطوعات الطويلة وهذِّها من بدايتها إلىٰ نهايتها شعرا ونثرا..، ظلَّ ذاكَ التصور مهيمنًا علىٰ شغافِ القلب ومتوغلا في حنايا النفس، وهو نتيجة لمعادلةٍ صغيرة ومباشرة بأن العلم هو مجرّد كتب ونصوص فمن استوعبها حفظا فهو الأعلم بها، إلا أن هذا التصور السابق أمست تزاحمه نماذج أخرىٰ بدَّدَتْ وهَجَه، وأخذت جذوعُ التوهُّماتِ حول حقائق العلم تهتز وتسَّاقط أوراقها شيئا فشيئا مع كلِّ نموذج جديد، فلا شكّ أن الحفظ من أهم أركان العلم وأعظم وسائله، ولا يتصور أصلا أن يوجد عالم لم يتكئ علىٰ محفوظ يتأمله وينفق منه متىٰ شاء؛ إلا أن المفارقة تظهر حينما ترىٰ اثنين يشتركان في الحفظ ويستويان في مقداره لكنهما يفترقان افتراقًا هائلا في استثماره وتوظيفه عند الحاجة إليه؛ فكم من حافظ للقرآن لا يخرم منه حرفًا؛ يعجز عن سرد بضع آيات صريحة في كفر المشركين مع غزارة النصوص وصراحتها في ذلك المقصد فهي لا تحتاج إلىٰ مهارة استنباطأأو دفعٍ للتعارض أو جمعٍ بين النصوص لاستخراج دلالة ضمنية من مجموعِها؛ بينما ترىٰ عالما جليلا كالشيخ ابن باز رحمه الله تستبق النصوص القرآنية إلىٰ شفتيه استباقا كلما أراد أن يحاضر أو يجيب عن موضوع

ما ويزيل بسرعة استحضاره للنص المطلوب ظلامَ جهلِ السائل كما يزيح الصبحُ عن الأفقِ إهابَ اللَّيل!

هذه المفارَقة التي تلوح كثيرا في مجامعِ العلم تقودنا إلىٰ إبراز تمييز ذكره بعض العلماء في كتب التراجم وأكثروا من الإشارةِ إليه والتنويهِ به، فحينما يريدون الإبانةَ عن علم العالم ويتغلغلون في سرد مميِّزاته التي فاقَ به أقرانَه كالحفظ والفقه وسعة الاطلاع علىٰ العلوم، فإنهم يُردِفون ذلك أحيانا بالحديث عن ملكته في استحضار المعارف الكامنة في صدره، ومدىٰ استثماره المحفوظَ حينما يحتاجه، فيميِّزون الحافظَ من المستحضر، وأكثر من رأيته يشير لهذا التمييز ويعتني به هو الحافظ ابن حجر رحمه الله في ما جمَعَه من تراجم في كتابَيه (الدرر الكامنة) و(إنباء الغمر)، فربّما قال عن صاحب الترجمة مثلا: (كان كثير الاستحضار)[1]، أو (كان عجبا في الاستحضار)[2]، وربَّما عَطَفَ الاستحضار علىٰ الحفظ مغايرةً بينهما لا من باب عطف المثيل علىٰ مثيله كما يتوهم الناظرُ لأوَّلِ وهلة.

وربما ذكر الاستحضار دونَ الإشارة إلىٰ اتساعِ المحفوظ أو مقداره أساسا، فعلىٰ سبيل المثال، قال ابن حجر عن ابنِ كثير: (كان كثير الاستحضار قليل النسيان جيد الفهم)[3]، وحينما ساق ترجمتَه

---

(١) إنباء الغمر (١/ ٤٦).

(٢) الدرر الكامنة (١/ ١٦٨).

(٣) إنباء الغمر (١/ ٤٦).

لشيخِهِ العِراقي ذكَرَ الهيثمي رحمهما الله، فوصف أحدَهما بالامتياز علىٰ الآخر بالحفظ، وامتياز الآخر عليه بالاستحضار، فقال: (وصار الهيثميُّ لشدّة ممارسته أكثر استحضارا للمتون من شيخه حتىٰ يظن من لا خبرة له أنه أحفظ منه)[1]، فابنُ حجر يرىٰ أن العراقيَّ أحفظ، والهيثمي أكثر استحضارا!

* * *

هناك وهمٌ شائعٌ لدىٰ بعض الناس وذلك بجعلهم الاستحضار فرعا عن الفهم وملازما له، ويجعلون ثمةَ تقابُلا بين الحفاظ من جهة، والفقهاءِ المستحضرين من جهةٍ أخرىٰ، فمن كان موصوفا بالفهم فهو بالضرورة قويّ الاستحضار، وهذا ليس صحيحا بهذا الإطلاق، فلا شك أن عُمْقَ الفَهم معينٌ علىٰ الاستحضار، لكنه ليس ملازمًا له بالضرورة، وقد قال ابن حجر عن أحد فقهاء الشافعية في وقته: (حفظ التنبيه في ثمانية أشهر، وحفظ كثيرا من المختصرات.. وكان قليل الاستحضار إلا أنه جيد الذهن حسن التصرف)[2]، فابن حجر -رحمه الله- يصف هذا الفقيه الذي عاصره بكثرة المحفوظ وجودة الفهم وحسن التصرف إلا أنه رغم ذلك قليل الاستحضار لما يحفظه، فيظلُّ لِسَانُه رابِضًا مُعتَقلا في الحنَك حين حاجتِهِ إلىٰ الانطلاق!

---

(١) المرجع السابق (٥/ ١٧٢).

(٢) المرجع السابق (٨/ ١٢٩).

وأنت إذا أجَلْتَ طرفك في المناظرات المنقولة في كتب أهل العلم تجد أن المتناظَرينِ في مسألةٍ لا يشترط تفاوتهما في المعطيات العلمية، وإنما كثيرا ما يقرأ أحدهما علىٰ الآخر دليلا -هو نصٌّ في المسألة- يشتركانِ في حِفْظِه قبل التناظر لكنه يغيب وتتوارىٰ رقَبَتُه بين زِحام المعلومات.

وأصلُ هذه الظاهرة المألوفة يحصل لكل أحد مهما بلغ من متانة التأصيل وقوة الرسوخ، فينقطع عن اللسانِ في لحظةٍ ما مددُ القلب وتختفي عن ناظري المرء منارةُ الدليل فلا يراها مع شدة معرفته لها قبلُ، فإذا ذُكِّرَ المرءُ ذكَرَ وثابَ إلىٰ الدليل، كما غابت آية ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران:١٤٤] وآية ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠] عن فاروق الأمة في الموقف العصيب وأدركها حين تلاها الصديق رضي الله عنهما فقال:(ما شعرت أنها في كتاب الله)[1]، فالعلم الإنساني بطبعِه يحضر ويغيب كما يقول ابن تيمية -رحمه الله- في توصيف نقص علم الإنسان: (وإن كان علمه في نفسه، فليس هو أمرا لازما للنفس لزوم الألوان للمتلونات، بل قد يذهل الإنسان عنه ويغفل.. فهو شيء يحضر تارة ويغيب أخرىٰ)[2].

---

(١) مسند أحمد (٢٥٨٤١).

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٩٩).

نماذج كاشفة:

أودُّ أن أسترسلَ قليلا في إيراد بعض النماذج التي تكشف بجلاء تفاوت الناس في استحضار المعارف الكامنة مع اشتراكهم في حفظِها، وقد أوردتُ مثالا لاستحضار الآيات، فسأورد مثالا لاستحضار الحديث، ثم مثالا لاستحضار أشعار العرب.

أما المثال الأول فقد وقفت امرأة علىٰ مجلس فيه أكابر المحدثين: يحيىٰ بن معين وأبو خيثمة زهير بن حرب وخلف بن سالم وغيرهم.. فسمعتهم يقولون: قال رسول الله ﷺ وسمعت رسول الله ﷺ ورواه فلان وما حدث به غير فلان، فسألتهم المرأة عن الحائض تغسل الموتىٰ -وكانت غاسلة- فلم يجبها أحد منهم، وجعل بعضهم ينظر إلىٰ بعض، وبينما هم كذلك إذ أقبل عليهم الإمام أبو ثور، فقيل لها: عليك بالرجل الـمُقبِل، فالتفتت إليه وقد دنا منها فسألته فقال: نعم تغسل الميت لحديث عثمان بن الأحنف عن القاسم عن عائشة أن النبي ﷺ قال لها: (أما إن حيضتك ليست في يدك. ولقولها :كنت أفرق رأس رسول الله ﷺ بالماء وأنا حائض. قال أبو ثور: فإذا فرقت رأس الحي بالماء فالميت أولىٰ به).

اللطيف في الخبرِ أن المحدِّثين الذين شهدوا هذه المحاورة بين أبي ثور والمرأة السائلة؛ قالوا علىٰ الفور عن الحديث الذي رواه أبو ثور: نعم رواه فلان، ونعرفه من طريق كذا، وخاضوا في الطرق والروايات، فقالت المرأة متعجبةً منهم: فأين كنتم إلىٰ الآن؟[1]

---

(١) المحدِّث الفاصل للرامهرمزي (١/ ٢٤٩).

وأما الثاني فقد رأىٰ هارون الرشيد مرةً في بعض أسفاره نارًا تضطرم بالليل من بعيد، فقال لمن معه من علماء اللغة وهم الأصمعي والكسائي واليزيدي: أنشدوني في هذه النار، وهؤلاء الثلاثة الذين سألهم الرشيد هم أقحاحُ اللغة وأوعيتها الكبار في ذلك الزمان، فأنشد الأصمعيُّ عدةَ أبيات، ولم يذكر اليزيدي والكسائي شيئًا، ولم ينبِسا بشطرِ بيت؛ فلما فرغ الأصمعيُّ من إنشاده؛ قال اليزيدي والكسائي للرشيد: والله يا أمير المؤمنين: ما أنشدك شيئًا إلا وقد عرفناه، ولكنه أحضرُ ذِهنًا مِنَّا.(١)

من أنعمَ النظر فلن ينازع في كون عامة النماذج المذكورة ليست متعلقة تعلُّقًا أوليًّا باستنباط المعاني الغائرة في بطون الأدلة، وإنما هي في مجملها نصوصُ الأدلة، وقد راعيتُ ذلك في انتخاب النماذج؛ لأن الاستنباطَ قدر زائد علىٰ الاستحضار، فالاستنباط هو استحضار مركّب من استذكار الدليل والدلالة، وإن كان يراعىٰ أن مخرجاتِ العلم لا يمكن أن تكون ثمرة خصلةٍ واحدةٍ من خصالِه كالاستحضار أو الحفظ أو الفهم أو الاستنباط، لكن تغلِب علىٰ بعض المواقف خصلةٌ علىٰ أخرىٰ، وليس المراد بهذا الاستحضار هو استحضار ألفاظ النصوص وإن كان ذلك أكمل صور الاستحضار، وإنما يتضمن حديثنا هنا استحضار الألفاظ والمعاني.

❋ ❋ ❋

---

(١) طبقات النحويين للزبيدي (١٦٩).

وقد أجَلْتُ بصَري في الكثير مما كتب في هذا الموضوع ووجدت أن البحر الذي تصب فيه أنهار الحلول المطروحة له جانبان: أما الأول فهو **مساءلة المادَّة المُدخَلة وتقليبها علىٰ وجوه مختلفة**، وأما الثاني فهو **تفعيل النظرة الشاملة**، وسنبحر علىٰ ضفافهما قليلا دون توغلٍ في الأعماق:

(١) مساءلة المادة المدخلة وتقليبها علىٰ وجوه مختلفة:

المعلومات التي يختزنها طالب العلم أيام الطلبِ وأزمنة التحصيل هي مواد مصمَتة (خام)، وهي علىٰ سبيل المثال نصوصٌ قرآنية، أو أحاديث كتاب أحكام، أو قصائد مطوَّلة دلَفت إلىٰ الذهن قطعةً واحدة، ودخولها بهذه الصورة يعرقل استثمارها عند الحاجة إليها ويجعلها غير قابلة للتجزئة والفرز والتفريق واستخراج النص المطلوب لحظة الاحتياج إليه ما لم تخضع لتقنية المساءلة الدائمة، وتتخذ هذه المساءلة أشكالا متعددة، إما كثرة التأمل الذاتي للمعارف المختزنة في تلافيف العقل ومحاولة كشف النظائر وبيان الفروق، والقراءةُ بلا تأمل ولا تفكر ولا إعمال للذهن هي مجرد إرهاق للعينين والرقبة، وإمَّا المباحثةُ للأقران ومدارستُهم علىٰ ما سيأتي بيانه.

والمحصَّل من تقنية المساءلة شحذُ الذهن ونفضُ الغبار الذي يسرع في التراكم فوق رفوف المعارف إن ظلّت مستكنةً حبيسةَ الفؤاد.

ثمةَ تحفّز عقلي يجده طالب العلم زمنَ المدارسة العلمية، وهناك توثّب روحي لحظةَ التناظر بين الأقران بالمعارف، وهذه الحالة الانفعالية للنفس هي وحدها الملائمة لتمهيد طريقٍ معبَّد تنثال منه المعارف من الذهن تِباعا عند الحاجة إليها لاحقا، بخلاف حالِ ذلك المنزوي حينما يقرأ ويحفظ باسترخاء تام في زاوية مكتبته، فإنَّه كثيرا ما تبقىٰ أرضُ معارفه بِكرا لم تشقّها معاول البحث والمساءلة؛ فربما انتهىٰ إلىٰ ما عبّر عنه ابن حجر عن حال أحدهم بأنه (كان في أول أمره ذكيا فطِنا، رأيتُ خطوط فضلاء ذلك العصر في طبقات السماع تصفه بالحفظ ونحوه من الصفات العلمية، ولكن لما رأيناه لم يكن في الاستحضار ولا في التصرف بذاك **فكأنه لما طال عمره استروح وغلبت عليه الكتابة فوقف ذهنه)**[1]، وتأمل التحليلَ والتعليلَ الذي ذكره ابن حجر بأن سبب ضمور الاستحضار عند هذا الرجل: الاسترواحُ وغلبةُ الكتابة؛ **فوقفَ الذهن!**

وسببُ الإفادة من المباحِثَات في تنمية ملكة الاستحضار هو أن طالب العلم يظلُّ ساعة النقاش مسخِّرا جميع طاقته، وموظِّفا كاملَ حواسِّه لاستذكار كلِّ ما لديه قبل المباحثة، ولضبط كل ما يقوله مُناظِرُه في أثنائها، ولتداركِ كل ما فاته بعدها، فهذا الجوُّ المتحفِّز هو أكثر الأجواء قابليةً لرفع مستوىٰ الانتفاع بالمعارف المدَّخَرة، وهذا

---

(١) ذيل الدرر الكامنة (١٢٢).

متصل بما تذكره الخبرة الحديثة في مجال علم الذاكرة في ما يسمونه بـ (الموقف الانفعالي): بأن الأحداث والخبرات المشحونة انفعاليا (بانفعالات سلبية أو إيجابية) يسهُل تذكرها أكثر من الخبرات التي لم ترافقها مثل هذه الانفعالات، وهو ما سماه بعض الباحثين في هذا المجال بـ(الذاكرة الانفعالية).

ومعنىٰ الإفادة من المباحثة بين الأقرانِ تحصيلاً لملكة الاستحضار أشار إليه عددٌ من العلماء، فمن ذلك ما أشار إليه الرافعي -رحمه الله- في رسائله بقوله: (المناقشة من أنفع الوسائل في تثبيت المسائل في الذهن و**قلما ينسىٰ الإنسان مسألةً ناقش فيها**)[1].

وأشار لهذا المعنىٰ من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- وأومأ إلىٰ أثره علىٰ الاستحضار بقوله: (ما رأيت أحدا لاحىٰ الرجال إلا أخذ بجوامع الكلم) قال يحيىٰ بن مزين: (يريد بالملاحاة ههنا المخاوضة والمراجعة علىٰ وجه التعليم والتفهم والمذاكرة والمدارسة)[2].

* * *

حينما يريد باحثٌ أن يكتب عن ملكة الاستحضار ووسائل تنميتها، فإنه لا يستطيع إغفالَ تلك الظاهرة التيمية المذهلة التي بهرت

(١) رسائل الرافعي (٢٢٦).

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر (٢/ ١٠٨).

علماء القرن السابع والثامن وطفقوا يتفننون في تصويرها ونقلها إلىٰ القرون الآتية بعبارات تفيض إعجابا وانبهارا واندهاشا، وإذا أردت أن تُقارب تصورَ تلك الظاهرة اللافتة فتذكر أن الذين نقلوها بإعجاب تامٍّ.. هم أئمة الحفظ وفطاحلة العلوم، ويعنينا في هذا الفصل أن ننقل ما يتعلق بملكة الاستحضار؛ فيقول الذهبي في ذكر استحضار ابن تيمية للنصوص القرآنية: (وله في استحضار الآيات من القرآن وقت إقامة الدليل بها علىٰ المسألة قوة عجيبة)[1]، وقد اجتمع بابن تيمية العلامةُ الشافعي المتفنن أبو الفتح ابن دقيق العيد فسُئِلَ عنه بعد اجتماعه به كيف رأيته؟ فقال: (رأيت رجلاً سائر العلوم بين عينيه، يأخذ ما شاء منها ويترك ما شاء)[2].

لا ريبَ أن وراء هذا الاستحضار المبهر ذاكرةً وقّادة ومواهب جِبِلِّيَّة، لكني شديد الاحتفالِ بسببٍ يلحّ عليَّ كلما تذكرت هذه الإطراءاتِ العريضة.

إنَّ معارف أبي العباس رحمه الله لم تكن يوما حبيسةَ فؤادٍ ساكن، وأسيرةَ مكتبةٍ معزولة، ولم تكن مرتبطة بقاعة أكاديمية مغلقة، أو ببحث ترقيةٍ جانبي، أو بدرس أسبوعي محكوم الفقرات والسؤالات، وإنما مذْ طرَّ شاربُ الفتىٰ الحرَّاني إلىٰ أن وخَطَه الشَّيبُ شيخا للإسلام ومعارفُه تتعرض لمعاول الاستخراج الدائمة والمباحثة

(١) العقود الدرية لابن عبدالهادي (٤١).
(٢) شذرات الذهب لابن العماد (٨ / ١٤٦).

المستمرَّة، ولم يقتصر ذلك الاستخراج علىٰ زمن كهولته بل حتىٰ أيام اليَفَاعة، كما يقول عن مناظرته للمتكلمين أيام صباه: (وأذكر أني قلت مرةً لبعض من كان ينتصر لهم من المشغوفين بهم - وأنا إذ ذاك صغير قَرِيبُ العهد من الاحتلام -: كلُّ ما يقوله هؤلاء ففيه باطل إمَّا فِي الدلائل وإما في المسائل..). بل -يا للطافة- لم يقتصر علىٰ نزحِ معارفه في ساعات اليقظة؛ بل حتىٰ حينما خلدَ للنوم مرَّةً.. استمرَّ الصبي الحرّاني في مساءَلة المعارف واستخراجِها؛ كما يقول: (كنت أرىٰ في منامي ابن سينا وأناظره، وأقول له: أنتم تزعمون أنكم عقلاء العالم وأذكياء الخلق، وتقولون مثل هذا الكلام الذي لا يقوله أضعف الناس عقلا)[1].

إني لا أستطيع كلما قرأت مسيرته العلمية الحافِلة إهدارَ هذا العامل الجوهري في تجويدِ معارفِه وجعلها قريبةً علىٰ طَرَفِ الثُّمام، يأتي بها كلما أرادها بصورة أدهشت الحفاظ والأئمة؛ لذا فحينما قال ابن دقيق العيد عن ابن تيمية العبارةَ السالفةَ التي أوردتُها؛ قيل له: فلم لا تتناظران؟ قال: لأنه يحب الكلام وأحب السكوت[2].

إن المرادَ بمساءلة المادَّة المدخلة هو **تحويلُ المادَّة المصمَتة إلىٰ إجابات مجزَّأة قابلة للاستخراج عند الحاجة**، فليست مقتصرةً علىٰ وسيلَتي التأمل والمناظرة، وإنما كلُّ ما أفاد الطالبَ كثرةَ حرثِ المادّة

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٥/ ٢٦٣-٢٦٤).

(٢) شذرات الذهب لابن العماد (٦ / ٨٢).

وبعثِها من مرقَدِها؛ فقطوف الاستحضار تزداد نضجًا ودنوًّا، ويمسي حال طالب العلم بكثرة الممارسة كما يقول ابن حجر عن الهيثمي: (وصار كثير الاستحضار للمتون جدا **لكثرة الممارسة**)[1].

أما ما يتعلق **بتقليب المادة العلمية علىٰ وجوه مختلفة** فلأنَّ الطالب يُدخل المادة ابتداءً في سويداء قلبه قطعةً واحدةً، ومِنْ ثَمَّ تمسي أيسر طريقة عليه لاستخراج شاهد منها هي تلاوتها أيضًا قطعةً واحدة، فإذا أراد أن يستشهد بالآية العاشرة من سورة النبأ اضطرَّ لتلاوة السورة من أوَّلها حتىٰ يصل إلىٰ محل الشاهد، وإذا همَّ بالاستشهاد بالبيت الثامن في باب الفاعل اضطر للإنشاد من أول الباب إلىٰ أن يظفر ببغيته، وأفضل ما يعين علىٰ تجاوز هذه الظاهرة الطبيعية هو تقليب المادة العلمية في الذهن علىٰ وجوه مختلفة، والتنويع في الإدخال علىٰ القلب لتسهيل اختلاس الشاهد من خبايا الذهن لحظة احتياجِه، ولهذا التقليب طرائق لا تحصىٰ كثرةً، فمثلا لو تبارىٰ مجموعة من الطلبة الحفاظ علىٰ استخراج آيات الجنة من ربع القرآن الأخير، أو آيات الملائكة في القرآن، أو تسابق ثلَّة من حفاظ الزاد علىٰ سرد مسائل باب ما لا علىٰ ترتيب الماتن وإنما علىٰ ترتيب أدلة المسائل في الظهور مثلا، أو عمد حافظ المعلَّقات إلىٰ استخراج أبيات متعلقة ببعض المواضيع نحو أبيات الإيمان أو الشك بالبعث لدىٰ شعراء المعلقات لكان لذلك أثره البيِّن في سرعة استحضار هذه

---

(١) إنباء الغمر (٢/ ٣٠٩).

الشواهد، وسيلحظ الحافظ ابتداءً نوعا من التعسر في أثناء استخراج الشواهد كأنما هو يمشي في طريقٍ مستوعر مليء بالحجارة، ثم مع مضيّ الوقت والاصطبار يتمرس الذهن علىٰ نزفِ المعارف الكامنة.

ومن طرائق تقليب المادة العلمية علىٰ وجوه مختلفة **حفظ الشواهد ضمن سياقاتها التداوليَّة**؛ فمن الملاحظ أن حفظ أحاديث الأحكام من سياقاتها الفقهية يعين علىٰ ذكر الصورة والحكم والدليل معا، وكذا حفظ الشاهد اللغوي ضمن سياقه المرتبط بالشاهد والمناسبة يعين علىٰ تذكر ذلك كلِّه، وهذا أيضا ما تذكره الخبرة الحديثة وفق ما يسمىٰ عندهم بمبدأ (الاقتران والاشتراط) فالسياق الذي يجري فيه تعلم مادة ما يساعد في استحضارها واسترجاعها كاملةً، ومن الشواهد المجربة في ذلك ما فسره عبدالوهاب المسيري في تعليل قوة استحضاره لكونه دائما يضع (كلَّ معلومةٍ أو حدثٍ داخل نمط؛ فاسترجاعه يكون سهلا)[1].

ومن طرائق تقليب المادة العلمية علىٰ وجوه مختلفة التي كان يفعلها بعض العلماء: إيراد آية ثم تحفيز أذهان الطلبة واستفزازها لذكر كل ما يتعلق بها نحوا أو فقها أو تفسيرا، ولا تصلح هذه الطريقة النافعة في تنمية ملكة الاستحضار إلا بإزاء شيخ متمكن، وهي ما كان يفعلها الشيخ إبراهيم بن عبدالرحمن بن جماعة في تمرينِهِ لطلابه، قال ابن حجر عنه: (ذكر لي القاضي جلال الدين البلقيني، أنه حضر

(١) حوارات المسيري لسوزان حرفي (١/ ٤٢).

دروسه، ووصفه بكثرة الاستحضار، قال: وكانت طريقته أنه يلقي الآية أو المسألة، فيتجاذب الطلبةُ القولَ في ذلك والبحث، وهو مُصْغ إليهم، إلىٰ أن يتناهىٰ ما عندهم، فيبتدئ فيقرر ما ذكروه، ثم يستدرك مَا لم يتعرضوا له، فيفيد غرائب وفوائد)[1].

وتجد العلماءَ من القرون الأولىٰ لديهم عنايةٌ بقضية استحضار العلم ويفتنُّون في تقليب المادة العلمية علىٰ وجوه مختلفة، فهذا الإمام البخاري -رحمه الله -يورد في صحيحه في باب (قول الله تعالىٰ تعرج الملائكة والروح إليه وقوله تعالىٰ إليه يصعد الكلم الطيب) حديثَ الخوارج، فيبين الحافظ ابن حجر رحمه الله أن الحديث جاء في بعض رواياته غير الرواية التي ذكرها البخاري في الباب المذكور لفظة: (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء)، قال الحافظ: (وبهذا تظهر مناسبة هذا الحديث للترجمة لكنه جرىٰ علىٰ عادته في إدخال الحديث في الباب للفظة تكون في بعض طرقه هي المناسبة لذلك الباب يشير إليها ويريد بذلك شحذ الأذهان والبعث علىٰ كثرة الاستحضار)[2].

(٢) تفعيل النظرة الكلية:

المعارف في كافة الحقول غزيرة التفاصيل كثيرة التشظِّي ولا سبيل للإحاطة بها كلِّها واستحضارها عند الحاجة إليها، فإن (الفروع

(١) رفع الإصر (٢٩).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٥١٦).

لا حدَّ لها تنتهي إليه أبدا)[١]، كما يقولُ ابنُ عبدالبر في جامِعِه، لكنْ مِن نِعَمِ الله علىٰ الطالبين أن جعل لكل حقلٍ معرفيٍّ قواعدَ جامِعة تطوق أطرافه وتلمُّ شعثَه، ولولا ذلك ما استطاعَ عالمٌ أن يصل إلىٰ مبتغاه ويحصِّلَ مطلوبه، وقد أشار العلماء كثيرا إلىٰ أهمية الاعتناء بالقواعد الكلية توطئةً لاستحضار التفاصيل الكثيرة، كما يقول الزركشي: (إن ضبط الأمور المنتشرة المتعددة في القوانين المتحدة، هي أوعىٰ لحفظها، وأدعىٰ لضبطها)، وكما يقول أبو العباس ابن تيمية: (لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية يرد إليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعدل)[٢]، وقد كان رحمه الله شديد الاحتفاء بالكليات وردّ الفروع الكثيرة إليها والتوكيد عليها في كل الفنون التي يتطرق إليها؛ كما يقول أحد الخبراء الكبار بكتبه وهو العالم عبدالرحمن السعدي رحمه الله في ذكر أعظم مميزات كتب ابن تيمية: (من أعظم ما فاقت به غيرها.. الاعتناء بالتنبيه علىٰ القواعد الكلية، والأصول الجامعة، والضوابط المحيطة في كل فنٍّ من الفنون التي تكلم بها)[٣]، وعلىٰ سبيل المثال حينما انتقدَ ابنُ تيمية بعض التفريعات والتطويلات في باب الأَيمان؛ ذكر أن الباب كلَّه يُضبط بثلاث قواعد، فقال: (ولا يحتاج باب الأيمان إلىٰ تفريع إذ هذه الأصول الثلاثة تضبطه ضبطا حسنا)[٤].

---

(١) جامع بيان العلم لابن عبدالبر (١/ ١٧١).

(٢) منهاج السنة (٥/ ٨٣).

(٣) طريق الوصول (٥).

(٤) الاستقامة (١/ ١١).

ومن هنا فإنَّ من أساليب تحصيل ملكة النظرة الكلية هو كثرة القراءة والنظر في أمثال كتب ابن تيمية، وستلاحظ مع مرور الوقت أن الضوابطَ والقواعد لا تقتصر علىٰ ما يسميه العلماء بالقواعد، نحو القواعد الفقهية وقواعد التفسير وقواعد الصفات ونحوها -وإن كانت تدخل فيها أصالةً- وإنما لا تنتثر حبات الفروع في أي حقل إلا من خيط قاعدة كلية عَلِمها مَنْ عَلِمَها وجهِلها من جهِلها، والحاذق من القرَّاء هو الذي يستعلي في أثناء المطالعة عن الإغراق في جزئيات الأبواب بحثا عن القاعدة الناظِمَة، فإذا أمسك بها إما استنباطا ذاتيا خاضعا للاختبار والتجربة أو تنصيصا من أحد المحقِّقينَ؛ أصبحَ شديد الاحتفاءِ بها، وبذل أغلب جهده في أثناء التعلم والحفظ والمطالعة والاسترجاع في الارتكاز عليها، فيختصر علىٰ نفسه مسافات زمنية شاسعة، وكلما ارتحلتْ -لاحقا- من ذهنه التفاصيل المبعثرة اتكأ علىٰ الكلِّيَّات التي تمرس بها؛ فتصطفُّ الجزئيات في خاطره تِباعا.

فيكون لدىٰ القارئ خلال النظر في المسائل عنايةٌ بالآيات التي هي أصول المسائل، وعنايةٌ بأحاديث الباب، وعنايةٌ بالقواعد الحاكمة، وإذا اشتغلَ بالفقه مثلا يكون لديه عناية فائقة بضوابط الأبواب تسهيلا لاستحضار الفروع التي لا تنتهي، والضوابط الفقهية أخصّ من القواعد الفقهية، كما يقول ابن نجيم في الفرق بين الضابط والقاعدة: (القاعدة تجمع فروعا من أبواب شتىٰ، والضابط يجمعها من باب واحد)[1].

(١) الأشباه والنظائر (٢/ ١٩٢).

وهذه النظرة الكلية المطلوبُ تفعيلُها ليست حكرا على مجال العلوم الشرعية، فحتى الأطروحات الفكرية والشخصيات والكتب إن لم توضع أصولها المجملة وروافِدها ومحركاتها الداخلية في بضعة سطور -ولو ذهنيا- فإن جزئياتها الصغيرة تضمحلُّ وتتلاشى مع تتابع حوافرِ الزمن على الذهن، وقد رأيت أحد المتمرسين على تفعيل النظرة الكلية يستحضر مجمل الإشكاليات والتفاصيل والموارد والإضافات فيما يقرؤه في الحقل الفكري باستحضار لافِتٍ مثيرٍ للاندهاش، هذا رغم شكواه الدائمة من ضعف ذاكرته، والسبب الذي أدركته لاحقا هو تمرُّسُه في تفعيل النظرة الكلية المحلِّقة فوق زحام التفاصيل الصغيرة، وتحصيل هذه النظرة الكلية نافع في استحضار حتى الجزئيات التي لم يطالعها الناظِر، وكما يقول ابن القيم بأن (العالِم ينتبه للجزئيات بالقاعدة الكلية)[١]، وهو نافع أيضا في كشف التناقضات والانحيازات المضمرة في ثنايا الأطروحات لكن الذي يعنينا هنا هو أثرها في تنمية ملكة استحضار الفروع المنبثَّة.

وقد رأيتُ مَن يُذكر بغزارة الحفظ تَنِدُّ عن خاطره أجلى الشواهد، ومَن يحفظ قدرا يسيرا لكنه أحسنَ استثماره في كلّ مناسبة، وليس هذا تحفيزا على تقليل المحفوظ، وإنما القصد الحث على الانتفاع بما يملكه الإنسان كَثُرَ أم قلَّ، وبعض الناس يعتقد أن فكرة التحفيز على التَّقليل من المحفوظ هي فكرة معاصرة جاءت بها النظريات العصريَّة

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٠٣).

في التعلُّم، وأن الأقدمين لم يُحفظ عنهم إلا الحثّ علىٰ الاستكثار من الحفظ، بينما تجد وصية الإمام مالك بن أنس لابني أخته أبي بكر وإسماعيل ابني أبي أويس حينما رآهما مُشتغلَينِ بعلم الحديث، فقال لهما: (أراكما تحبان هذا الشأن –جمع الحديث وسماعه –وتطلبانه) قالا: نعم. قال: (إن أحببتما أن تنتفعا به وينفع الله بكما فأقلّا منه وتفقها)[1].

* * *

وتفعيلا لتقنية النظرة الكلية المستعلية علىٰ تفاصيل هذا الفَصْل أقول – تذييلا ختاميا – بأن العالِمَ ليس هو في عدد ما حفظه من نصوص وما جرَده من معارف ولكن فيما انتفع بها منها واستثمرها مهما كانت قليلةً، وملكة الاستحضار للمعارف الكامنة هي أهمُّ الملكات التي ينبغي لطالب العلم الاعتناء بتطويرها، فإنها رونق العِلم وأبَّهة العالم، وطالب العلم إنما تعلّم وعانىٰ ليعرف الجوابَ حال الحاجة إليه، فإذا لم يستحضر الدليل أو لم يتذكر المعلومة التي بين جنبيه؛ فاتتْ عليه الثمرة التي كان يرتجيها، وعليه أن يبادر لتنمية هذه الملكة كيلا يقف الذهن مع طولِ زمان الأخذ، وتذوي ملكات العقل تدريجيا، فهي بطبيعتها سريعة الركود والاسترواح، وكما يقول الجاحظ بأن العقل (أطول رقدة من العين، وأحوج إلىٰ الشحذ من السيف، وأفقر إلىٰ

---

(١) الفقيه والمتفقه (١/ ٤٣٠).

التعاهد، وأسرع إلىٰ التغير..)[1]، ومن أعظم وسائل تنمية ملكته في استحضار المعارف الكامنة أمران: أما الأول فهو **مساءلة المادَّة المُدخَلة وتقليبها علىٰ وجوه مختلفة**، وأما الثاني **فهو تفعيل النظرة الشاملة**.

---

(١) رسائل الجاحظ (٣/ ١٠٤).

الارتخاء المعرفي

(تركوا العلم وأقبلوا علىٰ الغرائب،
ما أقلَّ العلم فيهم!)

أحمد ابن حنبل (٢٤١هـ)

عصرنا رديء في أكثر مقوِّماته وأفكاره ورموزه وأطروحاته، ومن رحمة الله بأُهيْل الحقِّ فيه أن خفَّفَ عنهم وعلم أن فيهم ضعفا فجعل لهم خصوما من الضعف والهزال بمكان، فلو بُعث بيننا أولئك المتضلعون الأوائِل الذين جالَدهم أئمة الإسلام لأمسىٰ الناس في أمر مريج، وكلما سمَقتْ قامةُ طالبِ العلم وألِفتْ قدمُهُ الجولانَ في رياضِهِ، وكان علىٰ قدرٍ من التوفيق والهداية في طلبِهِ؛ أدركَ شيئا من تهافت الأفكار التي طمَست حولَه الأبصار والبصائر، فاستطاع أن يشيِّدَ بناءً معرفيا متماسكا ولم تدركه آفة الارتخاء المعرفي.

ثمة طرائق قِدَدٌ في مدارسة العلوم وتشييد أبنية المعارف في الذهن، فكما أن الكتاب الواحد تتخطفه أيادٍ متعددة؛ أحدهم يقرأه ليستفيد، والثاني ليستمتع، والثالث ليباهي به، والرابع ليكتب ردا، فكذلك يصنع قاصدو الفنون وطالبو المعارف، فتجدهم يتفاضلون تفاضلا هائلا لاسيما في المخرَجات النهائية، فهم وإن وردوا نبعا واحدا إلا أن بعضهم يَفضل بعضا في الأُكل.

والإشارةُ إلىٰ اتحادِ النَّبعِ مع اختلافِ الأُكل معنىٰ ثابتٌ في الوحي، قال تعالىٰ: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ

﴿فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الرعد:٤].

وهو مستقرٌ في بدائِهِ العقول ومتناثرٌ في كلامِ أهل العلم، وأقتصرُ علىٰ الإشارة التيميَّة الدقيقة لامتياز حبرِ الأمة ابن عباس رضي الله عنه، فحين تحدث ابنُ تيمية بحفاوةٍ بالغة عن امتياز ابن عباس بالتفقُّهِ والاستنباطِ وتفجير النصوص وشقِّ الأنهار منها واستخراجِ كنوزِها؛ أشارَ إلىٰ أنَّ من أقران ابن عباسٍ مِن شاركه في المعارف ذاتِها لكنَّه فاقَهم بالقدرة علىٰ استثمارها فقال: (وقد سمعوا ما سمع وحفظوا القرآن كما حفظه، ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضي وأقبلها للزرع، فأنبتت من كل زوج كريم)[(١)].

ثمةَ قراءةٌ تعمد إلىٰ تحسُّس زوايا الفن ووضعِ الكَفِّ علىٰ صَدْرِ العِلم واستشعار نبَضات قلبه ومرتكزِ مسائله فهي تعرفُ المقدِّمات مع النتائج، وتخرِّجُ الفروع علىٰ الأصول، وتتغيَّا بلوغَ تحصيلِ الملكة لا مجرَّدَ ضبطِ الأقوال، وأخرىٰ تمرُّ مرورا عابرا علىٰ جميعِ مسائلِ الفنِّ وتتحفَّظها لا تكادُ تخرمُ منها حرفا، لكنَّها بمنأىٰ عن ملامسة الجذور وترسية القواعد، والثالثة -وهي أساس حديثنا هنا- هيَ قراءة الـمُلح وجمع اللطائف ومراكمة المعلومات الجانبية، إنَّها ليست صعودا علىٰ بنيان العلم الأصيل والدخول إليه من أبوابه المشرعة وطرُقِهِ المعبَّدة، وإنما هي التقاطُ لبِنَات متساقطةٍ من أصولِهِ ومراكمَتُها حولَه ثم التطاولُ بالأعناقِ بها علىٰ البنيان الأصيل!

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٩٤).

الـمُلَحي هو مَن يعرف ابنَ تيمية لكن لا بالوقوف علىٰ جوابه عن القانون الكلي للمتكلمين في درء التعارض، ولا باستظهار القواعد السبع والمثلين المضروبين في التدمرية، ولا بتلمُّسِ جوانبِ عبقريَّتِه في تفكيكِ شبهاتِ ابن المطهِّرِ في المنهاج، وإنما بِضاعة الملحيّ أنَّ ابنَ تيمية قال مرةً: (أنا المكدِّي وابن المكدِّي.. وهكذا كان أبي وجدِّي)[1] وأنه راسل أمه يوما وكتب لها ذات رسالة: (ولسنا والله مختارين للبعد عنكم ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم)[2].

وهو من يعرف أبا إسحاق الشاطبي لكن لا بهمِّ جردِ (الموافقات) والوقوفِ علىٰ حقيقة نظريته المقاصديَّة، واستجلاءِ قدر الإضافة الشاطبية، وإنما تستهويه رسالته (الإفادات والإنشادات) المشتملة علىٰ مُلح جمعها الشاطبي وفوائد يسيرة في أبواب شتىٰ من العلم، وأغلبها من تلك اللطائف التي قال عنها ابن عاشور ذات تعليقٍ لطيفٍ له عن الملح بأنها (كالزهرة تشمُّ ولا تحك!)[3].

وهو يعرف السيوطي لا بمدراسة مسائل (الإتقان)، وتحفُّظ أبيات (الكوكب)، ومعاناة مسائل (الهمع)، وإنما يستظهر أن له منظومةً في المجدِّدِين وكونه جعل نفسه مجدد ذلك العصر، وأنه من مكثري التأليف الذين جاؤوا في القرن التاسع والعاشر يوم أن

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٥٢٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٩٣).

تأخر المدُّ المعرفي، وصار مزاج ذلك العصر هو الجمع والتلخيص والاختصار وكثر فيه حاطبو الليل..، هذه معلوماتٌ ثقافيَّة لطيفة، تُستملح علىٰ ضِفاف شاطئٍ هادئ ذاتَ مساء عليل، لكنها ليست من صُلب العلم، ولا هي من أُسُسِ بِناء المناظِر.

ليس هذا هو ابن تيمية، وليس ذاك هو السيوطي، وليس هذا هو الشاطبي، ولو بُعِث أحدُهم من قبره ورأىٰ ما انهمك فيه المُلَحيُّون من نتاجه؛ لارتفعت حواجبُ دهشته، فهو كمن بنىٰ قصرا مشيدًا لقوم، فوجدهم قد افترشوا عتبةَ بابِه!

لم يغِبْ عن خلَدي أن الله خلق الناس متباينين في قدراتهم ومتفاوتين في اهتماماتهم، فجعل منهم الحفيَّ بأصول العلمِ المدركَ لمراتبه، بينما فطَرَ آخرين علىٰ الولع بالملح والأنسِ بجمعها، والانكبابِ علىٰ مظانِّها، ولم يعزب عن خاطري أن من المعارف ما هي أصول علمٍ ما، بينما هي مُلَحُ علمٍ آخر، ككثيرٍ من المعلومات التاريخية: هي أساس بنيان المؤرخ وصلب معرفته، بينما تنزل من المتن لتحل في الهامش بالنسبة للفقيه.

كل هذا وذاك لا يستدعي عقد فصلٍ في الكتابِ عن إدمان الملح بوصفها سببًا من أسباب الارتخاء المعرفي، وإنما ثمة ظاهرة متنامية تلفت الانتباه وتُبرز نفسها يوما بعد يوم بوسائل شتىٰ، وهي تضخُّ حُقَنًا من الاسترخاء في وريدِ الحركة العلمية، ألا وهي انصرافُ كثيرٍ من

طلاب العلم الأصيل عن صُلْبِ معارفِهِم وأساسِ بنائهم علىٰ حساب مسائلَ مفضولة، فكلَّما حلَّت مناسبة علمية كمعرض الكتاب طفحَ إلىٰ السطح سَدَنة الارتخاء، وأعمدةُ الملح، وأقطابُ المادَّة الخفيفة، ونشروا قوائمهم المقترحة، وكم تَنْفُق بسببهم بضاعة الروايات والتراجم والسير الذاتيَّة، ومُلح العلم ولطائفه، ونحن في زمنٍ أمست فيه شبكاتُ التواصل تكيِّف طرائق التلقي والتأصيل، وتفرضُ ذوقها الخاص بها، فصار كثيرٌ من وُرَّادها يتشرَّب عقله دون أن يشعر طرائق معينة في التحصيل وتثمينِ الفائدة والحكمِ عليها، فحين يقرأ كتابًا ما تستهويه فوائد معينة، إما لغرابتها - لأنَّ الإغراب يستهوي كثيرًا من المتابعين- رغم كونِ كثيرٍ من أصولِ العلم ليست من غرائب المعارف بالمفهوم الشائع، وكان بعض السلف يفرُّ من هذه الغرائب في الأحاديث ويجعلونها علامةَ إعلال، وإمَّا لكونها قصيرةً قابلةً للاقتباس والاقتناصِ فيُتاح له أن ينشرها في حسابه بسهولة، وإما لكونها محلَّ جدلٍ ساخن، ويَضرب الذكر صفحا عن تلك التي لا يتاح له نشرها إما لطولها أو لكونها لم تثر حولها إشكاليات، فصار ثمةَ ذوقٌ خاص في اقتناص الفوائد تفرضه هذه الشبكات، وتحتِّمه علىٰ مدمني النظر إليها أثناء قراءتهم للكتب وتلقِّيهم للمعارف، فيصبح طالب العلم الخاضع لمزاج هذا الذوق المرحلي جاهلا بأصولٍ مِنَ المسائل العلمية، ويغدو في بنائه المعرفي فجوات بيِّنة، وهي تلك المسائل التي لم تصبح بعدُ تحت الطلب في شبكات التواصل!

وليست المشكلةُ في مجرّدِ قراءة الروايات علىٰ سبيل المثال لتحصيل مقاصد معينة من التعمق في أغوار النفس الإنسانية، أو لامتلاكِ ناصية الملكةِ البيانية، أو حتىٰ للاسترواح عن النفس، وطرد خيوطِ السآمة عن القلب، فإذا بقيت هذه الأقاصيص والنوادر في حدِّها اللائق بها ضاقت مآخذ الإشكال عليها، وليس الإشكال أيضا في الْتِمامِ شَملِ العامَّةِ علىٰ هذه البضائع الخفيفة واستئناسهم بها، فمن شأنِ العامَّة أنَّ (الحديثَ لهم عن جملٍ طار أشهىٰ إليهم من الحديث عن جمل سار، ورؤيا مرئية آثر عندهم من رواية مروية)[1]، وإنما يجب أن يُصارَحَ طلابُ العلم الأصيل وناشِدو الثقافة الرصينة وحَمَلة الهمِّ المعرفي الجادِّ بأن في العلم مُلَحا وصُلبا[2]، وأن هذه الموجَة التي تصدِّرُها شبكات التواصل؛ ستقذف بهم بعيدا عن مَرامِهم إن همُ ركِبوها، وأن هذا الغبارَ الذي تراكمَ حول كتب الأصولِ ومعاقِد العلم في مكتباتهم؛ لن تزيحَه أعاصير الندم ورياح الحسرة بعد انفراط سنوات البناء الذهبية، بالإضافة إلىٰ كون الذِّهن الإنساني يتكيف ويعتاد ما حُمِل عليه، فإنه إذا ألِفَ ثقيل العلم وأصوله؛ سهُل عليه ما سواه، وفي هذا المعنىٰ يقول أبو بكر الصولي: (فربما كان الإنسان مهيأ الذهن لحمل العلم، قريب الخاطر متقد الذكاء؛ فيضيع نفسه بإهمالها ويميت خواطره بترك استعمالها)[3] فهذه الملكات كما أنها

---

(١) البدء والتاريخ للمقدسي (١/ ٤).
(٢) الاصطلاح للشاطبي في الموافقات (١/ ١٠٧).
(٣) أدب الكتاب (١/ ٢٧).

قابلة للتمدُّدِ والتَّمَكُّن فهي معرَّضة للضُّمور والارتخاء حينما تُغمر بهذه اللطائف.

ومن صور الـمُلَح المقنَّعة الإغراقُ في المفاضلة بين المحققين ودورِ النشر والانهماكُ في تتبع الطبعات ومعرفة امتيازات العلماء وأنسابهم وما يتصل بحياتهم الخاصة فهذه صنعة المؤرخ لا العالم الذي تعنيه حراسة الفن وتسييج بيضة العلم، ولملمة أطراف القواعد وابتناء الفروع علىٰ الأصول، وتجسير الفجوات بين الأبواب، وكل ما يدركه وراءَ ذلك من هذه الملح هو تبع لذلك الأصل.

وقد رأيت لفيفًا من هؤلاء الملَحيِّين يستطيل علىٰ بعضِ طلَّابِ العلمِ المنهمكين في مدارسة المتون والعاكفين علىٰ حفظها وضبط أبوابها واستيعاب مسائلها، بأنهم لم يتأهلوا إلىٰ مقارعة الأفكار الحديثة ولم يتهيؤوا لمنازلة الأطروحات الحداثية بكل ما فيها من زَخَم لُغَويٍّ أخَّاذ ومادّة كلامية خلَّابة..، ولأن (كلَّ مجهولٍ مهيبٌ)[1] أحدثتْ هذه الاستطالة تشويشا لدىٰ بعض المشتغلين بالتأصيل، فأرخىٰ سمعَه وبدَّل رفوفه ليواكبَ أقطابَ الملح في لفت الانتباه، فثمرة الـمُلح نقد، وثمرة التأصيل نسيئة، ولعَمري إن الاقتصار علىٰ المتون -علىٰ قصورِه- هو خيرٌ من حشدِ هذه المُلح ومراكمتها في الأذهان، فلا يخلو متنٌ من عُقَد العِلم، وأصولٍ مِنَ المسائل، فحاصل ما فعله الملحيُّون هنا مجردَ فرار عن المتون إلىٰ الهوامش! فالملحيُّون

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٥٦).

ليسوا أهلا لمنازلة الأطروحات الجانِحة، بل ربما كانوا حجر عثرةٍ في طريق منازلتها بإشاعتهم روح الارتخاء في مفاصل الحركة العلميَّة، وسيأتي بحث شيءٍ من ذلك في محورِ السِّجال بإذن الله.

وليس الخطاب موجها للعاجز فكما يقول الجاحظ: (بين التقصير من جهة التفريط والتضييع، وبين التقصير من جهة العجز وضعف العزم فرقٌ)[1]، إنما الخطابُ للنابِه القادِر.. لمَ يتخلىٰ عن أعزِّ ما يملك ويستبدل الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير؟!

ومِن حِيَل الملحيِّين أنهم حينما يولعون بمثل هذه اللطائف الملقاةِ علىٰ جنَباتِ العلوم وأرصفة الكتب وزوايا التراجم يتمترسون ببعض المقولات التي توحي بشرف معرفةِ هذه اللطائف، ولا شكَّ أن العلمَ بعامة الـمُلح واللطائف هو خيرٌ من الجهل بها، إنما حديثنا عن عمارة الوقت ومسارعة الزمان ومسابقة لياليه بالأهمِّ قبلَ انفراط زهرةِ الأعمار، بالإضافة إلىٰ كونِ هذه الملح ما لم تنتظم وتتسق داخل منظومة معرفية متكاملة فهي أقرب ما تكون إلىٰ قصاصات ورقية متناثرة، والتأصيل هو الذي يلمُّ شتات هذه القصاصات ويصنع منها دفترا متماسكا!

لما عرض زينة الفقهاء في القرن الماضي العلامة السعدي لآية ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ١٣]

(١) رسائله (١/ ٨٦).

في تفسيرهِ العذب الذي حرص علىٰ أن يكون خالصا لصلبِ العلم، خطر بباله أن بعض من سيقرأ هذه الآية الكريمة ربما انصرف ذهنه عن درَك حقائق قصة أصحاب القرية وصدَّ عن تأمل عاقبة ما جرىٰ لهم بعد التكذيب باثنين من الرسل ثم مواصلتهم التكذيب بعد التعزيز بثالث.. وصَدَفَ عن الدروس الهائلة التي تفيض بها جنَبات الآيات الكريمة، ثم تعلق بالملح الملقاة التي علىٰ ضِفافِ الخبر كتعيين تلك القرية وأين تقع..، ونحو ذلك من اللطائف التي يحسب الواقفون عليها أنهم علىٰ شيء، فبعثَ رسالةً صريحةً للملحيّين الذين تستروح نفوسهم هنا، وتسترخي مفاصلُ أذهانهم عند هذا الشطِّ من العلم؛ قال الشيخ: (وتعيين تلك القرية لو كان فيه فائدة؛ لعيَّنها الله، وطريق العلم الصحيح الوقوف مع الحقائق وترك التعرض لما لا فائدة فيه، وبذلك تزكو النفس ويزيد العلم من حيث يظن الجاهل أن زيادته بذكر الأقوال التي لا دليل عليها ولا حجةَ عليها ولا يحصل منها من الفائدة إلا تشويش الذهن..)[١].

واليوم نرىٰ في كل فنٍّ من العلم يتجاوز واردون نبعَهُ الصافي وماءه العذب ليقفوا علىٰ اسم قريةٍ وردت فيه ويتباهون بهذه المعارف، وهم من حيث علموا أو لم يعلموا يشيعون روحَ الارتخاء المعرفي والتبلُّد الذهني، ولو رأينا أن الذي فعل ذلك قلةٌ منهم؛ لصَمَتْنا وتَمتَمْنا -بصوتٍ خافت-: قد علم كلُّ أناس مشربهم!

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٦٩٣).

فلا يُرادُ مِنْ بثِّ هذا الهمّ والمصارحةِ به.. مصادمةُ السنن ومغالطة الطبائع البشرية بتضييق مجرىٰ العلم في أصوله، وردمِ ينابيع المُلح وعرقلةِ أقدامِ ذوي العربات الخفيفة والبضائعِ السهلة، ولكن المقصود الإشارة إلىٰ تفاضل العلم وإفساح الصَّدر ليتسنَّم المقدمة ذوو الأحلام والنُّهىٰ العلمية، ولفتُ الانتباه إلىٰ أن **مِنَ المعارفِ دورا للسكنىٰ ومنها حدائقَ للنزهة، والعاقل من يبني الدار قبل رصْفِ البساتين!**

السِّجال

سَمْسَرة المدافعين

(كلام أبي حامد ينفع المتفلسف ويصير أحسن؛ فإنّ المتفلسف يُسلم به إسلام الفلاسفة، والمؤمن يصير به إيمانه مثل إيمان الفلاسفة).

ابن تيمية (٧٢٨هـ)

ظللت موقنا أن بَسْطَ الشُّبهات علىٰ حَصيرِ القلب سيترك أثره – إلا ما شاء الله– حتىٰ في قلوب أولئك الذين يتوهَّمون أنهم أبعد الناس عن الانفعال والتأثر بها، وهم الذين يتناولون الشبهات لغرض الرد علىٰ أصحابها ودفع صائل البغي علىٰ حمىٰ الشريعة، ولست أعني أمثلةً تتداعىٰ إلىٰ خيال القارئ وربما انثالت ذاكرته المكتظة بأسماء أولئك الذين انزلقت أقدامهم فابتلعوا نِتاج الخصم ولم يستطيعوا بعدُ إخراجَه! لست أعني هؤلاء ابتداءً..

إنما قصدت أولئك الذين توهَّموا أنهم أخرجوه لكنه ظلَّ راسبا في الأعماق يتحرَّك في نطاق اللاشعور، نعم.. لا ينتقلون لليمين إذا كان الحق في الشمال، ولكنه كثيرا ما يدفعهم إلىٰ شمال اليمين أو إلىٰ يمين الشمال! **إنَّه حقٌّ مضمَّخٌ برائحةِ تهيُّبِ الباطِل!**

وكي لا يكون الكلام تجريديًّا سابحا في الهواء الطَّلق، فنريد أن نربطَه إلىٰ سارية من سواري واقِعِنا الفِكري:

لا يمكن لمن يرخي سمعه لمثقفي الهزيمة وهم يشرعِنون قيام الأحزاب الكافرة في شكل الدولة الإسلامية، فيحاولون تصويرَ المنافقين في المجتمع النبوي كانوا شبهَ حزبٍ سياسي يتأهَّبُ للمشاركة في البرلمان المدني، وترتكز جهوده الثقافية في عرض

المشروع الانتخابي مقابل سور البقيع، وأن شبابَ ذلك الحزب كانوا منهمكين في تعليق لافتات كبيرة في شوارع يثرب عليها صور المرشَّح الرئاسي للحزب عبد الله ابن أبي سلول مقابل المشروع السياسي المنافس لمحمد بن عبد الله ﷺ!

لا يمكن لمن أرخىٰ سمعَه ثم انطبعت في ذهنه -أولا- هذه الصورة المتخيَّلة المصمَّمة لتتلاءم مع الذائقة التعدُّدِيَّة المعاصرة أن ينتقل بسهولة إلىٰ الضفَّة القرآنية المقابِلة، وهي تلك التي تصور المنافقين بكل وضوحٍ: جماعةً مطاردةً مستخفيةً تنفلتُ من فِيْ أحدهم الكلمة بما يضمره قلبه فتنتفض أطرافه وتتيبسُ شفَتاه من فرطِ الهلع، ويركض ليتعلَّقَ بناقةِ النبي ﷺ ويعقد له الأيمانَ الغليظة حتىٰ يعدلَ عن إقامة الحد عليه.

ولا يمكن لمن ترك عينيه تجول باسترسال تام في شبهات المشككين في عقيدة الولاء والبراء وتَتَوارد علىٰ قلبه الغضّ عباراتهم الحالمة في الحديث عن الإنسانية المشتركة، أن ينتقل دونما عناءٍ إلىٰ الحقيقةِ القرآنية الصارمة في البراءة من الكافرين والواردةِ في عشرات الآيات إما مطابقةً، أو تضمُّنًا كتلك النصوص القرآنية التي تحدثت عن هبوط مكانة الكافر في ميزان الشرع وكونه أحطَّ الدوابّ وشرّها وكالأنعام.. بل أضل سبيلا!

ولا يمكن لمن ابتلعَ مناقبَ الحرية الليبرالية في كتبِ أولئك الذين اتخذوها منهج حياةٍ يحاكمون إليها ويوالون ويعادون، وكتبوا

في فضائلها مقطوعاتِ النسيب المطوَّلة؛ أن يصدع بيسر وسلاسةٍ عن كون الإسلام يصادر حقَّ التعبير عن الأقوال المنحرفة، ويمنع بيع الكتب المشتملة علىٰ «الآراء» الإلحادية في معارض الكتب، وأنه (يجب حسمُ الباب في زجر الكافَّة عن مطالعة كتب أهل الضلال)[1]، كما يعبر أبو حامد الغزالي.

ثمَّةَ حواجزُ صَدّ خفيَّة تحول بيننا وبين الصعود إلىٰ قِمَمِ المعاني الراقية التي جاء بتفصيلها القرآن، وما زالَ كثيرٌ من أولئك الذين يتوهَّمون أنهم صعدوا إلىٰ القمة السماوية متاخمين لسفوح القناعات الأرضية! فأكثرُ ما يحاذره المدافعون ويشدّ أنظارَهم من صورِ الانحراف؛ هي تلك القناعات المبايِنة مبايَنةً كليةً لمضامين الوحي الإلهي، بينما نغفلُ كثيرا عن عمليات الشطب اليسيرة، وهي التنازل عن «الشيء القليل» التي عبَّر عنها القرآن بِبلاغَةٍ أخَّاذَةٍ بقوله: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤] قال السعدي: (من محبتك هدايتهم)![2] نعم.. فهذه التغييرات اليسيرة تنشَأ غالبا عن صفاء نيَّة وفق مكوِّنات ثلاثة، أورثت أصحابها نتيجة حاسمة، وهذه المكونات هي:

١-دخول معترك الدفاع عن الإسلام.

٢-اليقين بضلال الأطروحة المباينة مباينةً تامَّةً لحقائق القرآن.

---

(١) المنقذ من الضلال (١١٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٦٣).

٣-خنوع داخلي خفي للأطروحة المباينة.

والنتيجة الحاسمة التي ينتهي إليها كثيرٌ من فضلاء المدافعين عن حمىٰ الشريعة؛ هو شيءٌ من الصُّدودِ القلبي -خارجٌ عن مدىٰ الاستشعار- عن بعض المعاني القرآنية اللاحِبَة، وشيءٌ من الإخلادِ إلىٰ مكانٍ بين الضفَّتين! فلا هم انتهوا إلىٰ الانزلاق والتهاوي في وادي الباطل الذي أرادوا نقضَه، ولا هم شرُفوا بالصعود لقِمَمِ الحقِّ السامِقة..، وقد عبّر عن هذه الحقيقة المتكررة عبر العصورِ أبو العباس ابن تيمية، وأشار بدقَّة باهِرة إلىٰ مكوناتها الثلاثة ونتيجتها الحاسمة في نصٍّ من عيون نصوصِه، قال شيخ الإسلام:

(واعلم أنَّه لما حرَّف من حرَّف.. كثيرا من معاني القرآن؛ صارَ آخرون من المؤمنين الذين علموا بطلان ما ابتدعوه ينهونهم عما ابتدعوه.. وضعُف أولئك المؤمنون عن تحقيق الإيمان بمعاني القرآن، إما في بواطنهم لما عارضوهم به من الشبهات، وإما في ظواهرهم لما قاموا به من المجادلات والمجالدات، وأخلد الفريقان إلىٰ الطريقة الأمية المتضمنة الإعراض عن معاني كثير من القرآن، وصار ممن يرىٰ هذه الفتن والافتراق يصد قلبه عن تدبر القرآن وفهمه)(١)، تأمل بديعَ عبارَتِه وكيف يتحدث عن نتيجة كثيرٍ من المدافعين وكيف أخلدوا في سرائرهم إلىٰ «الطريقة الأمية المتضمِّنة الإعراض عن كثير من المعاني

---

(١) جواب الاعتراضات المصرية (٢٦).

القرآنية» السامية، وهي تلك المعاني التي أضرمَ تحتها خصومُ الشريعة نيرانَ التشكيك والتشغيب، واتخذوها ذريعةً للطعن في جوهر الرسالة، فوجدَ (المدافعون الاستسلاميون)[1] أنفسَهم تتنازعها جواذبُ شتىٰ، فهم في حالةٍ من التردد بين الإقدام والإحجام؛ انتهت بهم إلىٰ إعراضٍ خفي منزوٍ في الضمير لا يكادُ ينطق به اللسانُ ولا يفصح عنه القلمُ إلا في اليسير!

نعم.. فالتشغيب والتشويش علىٰ بعض المعاني الشرعية واتخاذها سُخريا من قِبَلِ خصوم الشريعة، وكذا تصادمها مع بعض الظروف السياسية المتقلبة، قادت بعض أهل العلم وحملة القرآن إلىٰ شيءٍ من الركونِ إلىٰ تخفيض كمية الدلالة لمعاني الوحي العظيمة و «الإخلاد إلىٰ الطريقة الأمية» كما صورها ابن تيمية!

إنه يجب علينا أن نُثَمِّن جهودَ الدفاع عن الشريعة وأن نفرحَ بكلِّ جرَّةِ قلم في سبيل الذود عن حياضها، لكن ينبغي أن لا ينسيَنا ذلك نقدَ النقد وتصحيحَ مشاريعِ الردود، ومصادرةَ الإجابات الخاطئة التي لا توصل إلىٰ المطلوب، وإنما تساهم بصورة معاكِسة في نقلنا بين زوايا الغلط! فكثيرا ما ينسىٰ المدافع نفسه ويذهل عن حقيقة كونه مجرد «ساعي بريد» يقتصر دوره علىٰ مجرد إيصال الرسالة تامة، فيمسي «سمسارا» يخفض ويزيد في السلعة وثمنِها ملتمسا رضا الزبائن!

---

(١) التعبير للشيخ عبد الرحمن المعلِّمي في الأنوار الكاشفة (٢٣).

قال أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء التابعي الجليل الحسن البصري عن وظيفة المدافع الحقيقي عن الشريعة: (ينشر حكمة الله؛ فإن قُبِلت منه حمدَ الله، وإن ردَّت عليه حمدَ الله)[1]، وكما هي العادة دوما ينسىٰ المدافعون حقيقةَ دورِهم، فيتصرفون في تغييرِ سلعةٍ لا يملكونها، وربما امتدَّت أصابعُ ساعي البريد لطمس معالمَ في غاية الوضوحِ والبيان في رسالته التي يحملها، فيَروي بعضهم أنَّه التقىٰ المفكِّر الإسلامي مالك بن نبي، وأنه سأله: لمَ قرَّرَ في كتابه (الظاهرة القرآنية) أن فرعونَ لم يمت غرقًا ولكنه نجا ببدنه! فقال مالك بن نبي -عفا الله عنه-: (اخترت هذا الرأي لأنه يروق للمستشرقين وهو أقرب إلىٰ ذهنيتهم، فأردت أن أكسبهم إلىٰ جانبنا بذلك!)[2].. تلك هي العُقْدَة الأبديَّة للمدافع السمسار الذي يستشعر أن شيئا من الحق جديرٌ بالإخفاء طِبقًا لهوىٰ المستهلك!

حينما تكلم المؤرخ للفكر العربي ألبرت حوراني عن جهود الشيخ محمد عبده الفكريَّة أشار إشارةً مسددة إلىٰ مستوىٰ الضغط الرهيب الذي يجده المدافِع عادةً فيقترب دون شعورٍ إلىٰ منطقة الخصم؛ قال حوراني: (كان الجدل من مقومات فكر عبده، غَيرَ أنَّ الجدل له أخطاره، ففي الدِّفاعِ عن النفس قد يصبح المجادلُ أقربَ

(١) الشريعة للآجري (١/ ٤٧٤).

(٢) مذكرات ابن القرية (٣/ ٢٣٨).

إلىٰ خَصْمِه مما كان يظن)[١]، وهي التقاطةٌ بارِعةٌ تحكي كثيرا من مشاريع الدفاع التي تُبنىٰ قِبَلَ مَدافِعِ التشكيك، أما العلامة المعلِّمي فضرب مثالا بديعا للمدافع السمسار بأنه (كمن يكون علىٰ جسر غير محجَّرٍ فتستولي علىٰ ذهنه خشيةُ السقوط من جانب، فيتأخر عنه ويتأخر حتىٰ يسقط بغير اختيارِه من الجانب الآخر)[٢].

نعم لا يُنكر أن كثيرا من مشاريع الدفاع الخاطئة ربما ساهمت في رد (باطل الكفار من المشركين وأهل الكتاب بباطل المسلمين، فيصير الكافر مسلما مبتدعا)[٣] كما يسطر ابن تيمية، لكنه ذكر في موضع آخر خطورة المسالك الخاطئة وأنها ربما أضرَّت بأهل الحق (فاحتاجوا إلىٰ إثبات لوازمها، فاضطروهم إما إلىٰ الموافقة علىٰ الباطل، وإما إلىٰ التناقض الذي يظهر به فساد قولهم، وإما إلىٰ العجز الذي يظهر به قصورهم وانقطاعهم)[٤]، وقد ذكر العلامة محمد كُرد علي أنه سمع الشيخ طاهر الجزائري يقول يوما عن أحد المتصدين للدفاع علىٰ غير سبيل صحيح إنه (فتح علينا أبوابا يصعب سدُّها!)[٥].

---

(١) الفكر العربي في عصر النهضة (١٧٨).

(٢) الأنوار الكاشفة للمعلمي (٣٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١٧/ ٩٧).

(٤) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٦٤).

(٥) كنوز الأجداد لمحمد كرد علي (٢٤)، وذكر الفخر الرازي بأن (الردَّ على أهل الإلحاد بالأجوبة الخسيسة الضعيفة؛ سعيٌ في تقويةِ شبهاتهم) مناظرات بلاد ما وراء النهر (٤٢).

وكلُّ هذه مساوئ تتعلق بإفحام الخصوم وسُبُلِ ردِّ باطِلِهِم، لكن -في نظري- أنها ليست هي الخسارة الكبرىٰ من سلوكِ هذه الطرق المعوجَّة، وإنما الخسارة الكبرىٰ هو ما تعلّق بنا نحن وبيقيننا وإيماننا بكمال الرسالة الإلهية وتمامِها، وما نَتَجَ عن الضَّغْطِ الرَّهيب حال استحضار تشويش الخصم وتشغيبه من **ضمورِ المعاني القرآنية الشريفة في القلب،** وذلك لأنها تزعج أقواما وتكدِّر عليهم صفوَ لذائذهم أو تشوِّشُ علىٰ صورة الإسلام التي يفضِّلونها، فيَخلو أحدنا في زاويةٍ قصيَّة في بيتِه ويحتوي مصحفَه بيديه في المساء ويمرِّرُ فوق آياتٍ محكمةٍ بصَره دون أن ندعَ معانيَها الربانية تضيءُ في نفوسِنا المعتِمَة.. فنقع في «أمِّية المدافعين» ولو كنَّا صامتين لم نسطِّر في هذه التحريفات حرفا! **أو نقع في ما هو أدهىٰ منها وهي العبث بالسلعة لتوافق ميولَ المشتري، فنغدو محضَ سمسارين لا مبلِّغين!**

معارف المتجمهرين

(ابن عبد ربه الأندلسي والأصفهاني...
هؤلاء سمريّون؛ إذا ظفِروا بالنكتة؛ لم يهمهم أصدقا كانت أم كذبا).

عبد الرحمن المعلمي (١٣٨٦هـ)

تظلُّ الثغَرات العلمية مطمورةً تحت ركامِ الأيَّام حتىٰ إذا ما هبَّتْ رياحُ حدثٍ فِكري استوجب نزاعًا انكشفتْ مواضعُ قُصورٍ كثيرةٍ في العقول والمناهج، والسوءاتُ الفكرية لا توجب غضَّ البصر كالسوءات الجسدية وإنما توجب علىٰ الغَياري إمعان النظر وتكراره واحتساب ذلك عملا صالحا حفظا لأوقات طلاب العلم والهدىٰ وصيانةً لأذهانهم من الانزلاق في مغارات مظلمة تدكُّ صرح بنائهم العلمي الآخذ لتوِّه في الاكتمال؛ فسوءة الفكر إنما تُواري بالتأمل والتمعُّنِ في الموضع المنكشف كي لا ترمَّ الجروح علىٰ فساد ولا ينبت المرعىٰ علىٰ دِمَن الثرىٰ، وطالبُ الحق الذي يبني تصوراته ابتداءً علىٰ أنقاض الأطروحات المتصادمة إنما يبني بناءً مشوَّها مهددا بالانهيار؛ لذا يُحَذِّر بعضُ العلماء من التأسيس ابتداءً علىٰ كتب الردود ولو كانت ردودَ أهل السنَّة علىٰ المبتدعة، **فحينما يُخصَفُ ثوبُ التصورات الأولية من قماش تجاذبته الأيدي فلا تسل عن الخروق في وسَطِه وعلىٰ أطرافِه!**

وإني - والله يشهد - لطالما وجدت في نفسي إجلالا لاثنين من طلبة العلم:

الأول: الذي يرىٰ انكبابَ الناسِ مرةً بعد مرةٍ وراء الجديد من الأطروحات كما ينكبُّون علىٰ «موضات» اللباس والأجهزة؛ وهو عازف عن كل ذلك - لا عجزا - وإنما لأن العمر قصير والعلم النافع كثير.

والثاني: الذي يرمق انقسام الناس إلىٰ شطرين في مسائلَ يعرفُ في قرارةِ نفسه أنه لم يحتشد لها ولم يحط بأصولها علما، فيهديه اتزانُه إلىٰ أن يختار لنفسه قولا ثالثا في المسألة التي تتقاذفها ألسِنَةُ اللهَب وهو التوقُّف وصيانة القلب عن دخان الحرائق المفتعلة، ومن ثَمَّ يربطُ لسانَه بحزام التأمل العميق، ويتحاشىٰ أن يقفوَ بقلمه الغضّ ما ليس له به علم، لأن ﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٦٣]، وأغلبُ ما سيَخسره من هذا الإعراض هو شيء مما أسميه (**معارف المتجمهرين**)، وهي تلك الآراء الانفعالية الخاضعة للظروف النفسية لأقطابِ رحىٰ النزاعِ وما يستعرضونه من «موضات» الأفكار، وغالبا ما تَنْحسر هذه الآراء عن أصولها المعرفية.

وطالما حزنتُ لذلك الذي كلما سمع هَيْعَةً فِكريَّةً طارَ إليها، واستفزَّ إليها مَن استطاع بصوته، وأجلَبَ عليها بخيله ورجله، وشاركهم بكل ما يملك من لياقة روحية وطاقة عمرية، ومن المؤسف أن أكثر هؤلاء الذين يولعون بالتجمهر علىٰ مثل هذه المناكفات الثقافية المتتابعة؛ يفقدون مع الوقت الميزان الشرعي الصحيح للأشخاص والأقوال، فيمسي أحدهم يرىٰ النجاحَ العلمي أن تكون شخصيّتِك موضعَ جدلٍ وردٍّ ونقضٍ وتأييدٍ وإبطال، وترمق أبصارهم

بإعجاب مَن نجح في مجرَّدِ الإثارة واستمطارِ الردود الساخطة رمَقَ إكبار وإجلال، بغضّ النظر عن مدىٰ إصابته الحقَّ أو مقارَبَتِه للمرادِ الإلهي من عدَمِه!

لقد كان صبيغُ بن عسل لافتا علىٰ الساحة الثقافية في القرن الأول، وكان يلقي أحجارا في مياه راكدة، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُعيد الركود بالدرّة لتلك المياه التي حركها صبيغ، وربما لو وجد صبيغ في عصرنا لسارع بطَبعِ سؤالاته الحائرةِ حول سورة الذاريات في بعض الدور الحفيَّة بإثارة التساؤلات وتصدير الارتيابات في جميع المناطق العلمية أيا كانت بغض النظر عن كونِها ستقود السائل أو المسؤول إلىٰ جوابٍ أم ستتركه تمضغه أنياب الحيرة، وهكذا واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وابن أبي دؤاد والجبَّائيَّان وغيرهم كانوا يحركون مياها شديدة الركود في العقل السُّنِّي وبرغم ذلك لم تكن تلك التساؤلات محمودة وفق الميزان الشرعي للأقاويل والأطروحات، بل هي خليقةٌ بالمصادرةِ علىٰ قدرِ الاستطاعة، وإن كان معلوما أن سؤالات هؤلاء تخلَّقَت داخل منظومة فكرية أخرىٰ متكامِلة، لكنَّ المقصود من هذا السياق أن معيارَ الإثارة يجب أن يتنحَّىٰ بعيدا عن ورقة التقييم الشرعي، وأن يظلَّ في منأىٰ عن الإشادة به مجردا عن عاملِ إصابةِ الحق؛ وذلك لأن كل طالب علم يعلم أن هذا المسلك ليس عسيرا؛ **فأعطني أيَّ مسألة عقدية أو فقهية أو فكرية أو أصولية أو تاريخية..؛ أُخبرْكَ كيف تثير بها زخَما مؤقتا من الجدل والإثارة**

وتستثير بها ركاما من الردود الغاضبة وتورث الساحة العلمية انقساما من أجل أطروحتك لكنَّ (**العلمَ النافعَ وراء ذلك**)!

* * *

من المعلوم أن البعضَ يحتفي بالسؤالات والاستشكالات علىٰ الحقِّ بحثا عن اليقين، لكنَّ هذا المسلكَ محفوفٌ بالمخاطَرة، وهو غالبا ناشئٌ عن خطأٍ في فهمِ اليقينِ الشَّرعي الذي هو (**وارداتٌ ترد علىٰ النفوس تعجز النفوس عن ردها**)[1]، فهو يُحصَّل من تظاهر الأدلّة وتعاضد الحجج لا مِن ملاحقة المعارضات الخارجية ونقضِها، فالحقُّ يعرفُ ابتداءً بكثرة أدلته اليقينية وأهل السنة يؤسِّسون مذهبهم علىٰ مجموع الأدلة الشرعية التي يتفاوت المؤمنون تفاوتا هائلا في تحصيل آحادها من جهة وفي تحصيل حقائقها في القلوب من جهة أخرىٰ، وكلُّ من حصَّل منها قدرا عاليا فرح قلبه وطابت نفسه، كما يقول الشافعي: (**الأخبار كلما تواترت وتظاهرت كان أثبت للحجة وأطيب لنفس السامع**)[2]، وشرح المعلِّمي هذا الانتشاءَ القلبيَّ اليقينيَّ بقوله: (**والعالم يحب تظاهر الحجج**)[3].

هذه هي المرحلة الأولىٰ، ثم ينتقلون للإجابة عن الإشكالات الطارئة، وربما أجابَ العالم عن بضعِ إشكالاتٍ ولم يعرف وجهَ

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢/ ٧٦).
(٢) الرسالة (٤٣٢).
(٣) الأنوار الكاشفة (٨٦).

الجواب في أخرىٰ، وعرفها غيره من أهلِ العلم، لكنَّ هذا لا يجعله يبرح الحق قِيدَ أنملة لأنه عرف الحق بالأدلة اليقينية ابتداءً، ولأنَّ الإشكالات بحرٌ متلاطم كثرةً، فلو كان سيتتبع خيوط الإشكالات المعقَّدة ليجيب عنها كلها لربّما التفَّ خيطٌ علىٰ عنقه فلم يؤمن بشيء البتَّة لوجود تساؤلات ملقاةٍ علىٰ قارعةِ كلِّ طريق، وعدم إيمانه بشيء البتة سيبعث عليه إشكالات أخرىٰ أشدّ مرارةً وبؤسا، وهكذا حتىٰ ينحدر تدريجيا في هوَّةِ الارتيابات السحيقة، كما يقول المسيري عن مرحلة قاتمة من مراحله الفكرية: (**تخلَّيتُ فيها عن الإيمان حينما تصورت أني أحلُّ بهذا المشاكل الميتافيزيقية التي عرضت لي؛ لكن بعد ذلك بدأت المشاكل!**)[1].

قال الشيخ السعدي رحمه الله في تفسيره العذب: (**إذا تبيَّنَ الحق بأدلَّته اليقينية لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه لأنها لا حد لها، ولأنه يعلم بطلانها، للعلم بأن كل ما نافىٰ الحق الواضح فهو باطل**)[2]، فإذًا مجرَّدُ كونِها مصادمةً للحق الذي تحصَّل بأدلَّةٍ كثيرة.. هذا بحدِّ ذاته ردٌّ مفحم عليها بصورة غير مباشرة، ومِن أغربِ ما أنتَ راءٍ من يتباهىٰ بارتياباته وبكونه تمزقه رماح الحيرة بينما يغمز الآخرين الذين يسترخون علىٰ وسائد اليقين، أو تندُّ منه عبارات

---

(١) عبارة وردت في حوار مرئي مع المسيري، موجود ضمن مقطع على موقع (اليوتيوب) بعنوان رحلتي من الشك إلى اليقين.

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٧٢).

تمتدح مطلقَ التساؤل، ويكون هذا -بحدِّ ذاته- من معايير الثناء علىٰ الكتب والأطروحات؛ بأنها تلك التي تزرع في فؤادك بذور الريب وتقذفه في رَمضاء السؤالات، ولا يهمُّ كون السؤال نفسه صوابا أو خطأً، الأهم أن تظل متسائلا في كلِّ شيء؛ إنك لا تجد أمثال هذه العباراتِ الموغِلة في ذم الاعتقاد الجازم صادرةً مِن أحد أئمةِ الإسلامِ الكبار ولا للمحققين من أهل العلم، وإنما غاية ما هنالك طلبُ الدليل والتأمُّل لتعميق التصورات الصحيحة لا لخلخلتها باسم إثارة التساؤل والشكوك وتحريك المياه الراكدة! بل ثبت عنهم ما يناقضها، ولهذا يقول ابن تيمية: **(لم يمدحِ الحيرةَ أحدٌ من أهل العلم والإيمان)**[1].

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٨٥).

تقويم معارف المتجمهرين

كلَّما رأيتُ - ما أشرتُ إليه في رأس الفصل - هذه المنازعات الفكرية، وما يستتبع هذا النزاع الدائبَ من **تجمهرٍ محتدمٍ علىٰ معارف محدودة** وتجفيفٍ مستمرٍّ لمواردِ اليقين؛ يتداعىٰ في ذهني تساؤلٌ ملحٌّ: ما الذي يجعل أطروحةً ما ينقسم الناس إزاءها ما بين قابلٍ مصفِّق وبين صامتٍ متحفِّظٍ وبين رافض معترض؟

حاولت أن ألخِّصَ أهم الإجابات التي جالت بخاطري ووضعتها علىٰ سطح المكتب، لاشكَّ أنَّ مِنْ أسباب الرفض عند كثيرين: التوجُّس من الجديد أيا كان (**لأن الفطام عن المألوف شديد والنفوس عن الغريب نافرة**)[1]، ومن أسبابه عند آخرين: كوامنُ نفسية متغلغلة إزاء القائل وهي تتحكم بموقفه من القول نفسه تبعًا، وهذا يماثل موقف الذين قالوا: ﴿**لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾ [الزخرف: ٣١]، فإباؤهم بسبب عدم اقتناعهم بالرسول ﷺ لا بالرسالة التي جاء بها.

حين نُسقط من تفكيرِنا هذين الفريقين اللذَين رفضا أطروحةً جديدةً لأحد السببين السَّالِفَين؛ لا شك أنه سيتبقىٰ آخرون ليس لديهم نفرة طبعية من الجديد، ولا تحكمهم نوازع نفسية إزاء القائل، وهؤلاء

(١) المستصفى للغزالي (١/ ٩).

أيضا لهم أسبابهم، لكن توقَّف خاطري برهةً عند أحد هذه الأسباب وسرَّحتُ طرفي فيه وطفقت أتملاه قليلا.. ألا **وهو الفارق العلمي بين الناس**، وما أكثر ما يذكر هذا سببا للخلاف إزاء الآراء دون التغلغل إلىٰ شيءٍ من معانيه؛ فلا أقصد الجهلاء أصحاب الذهن الفَضاء الذين لا يحيطون بشيء من العلم ويصدق في كثير مما يتلقَّفونه بأنه **(صادف قلبا خاليا فتمكنا)**.. وإنما أقصد أولئك الذين يقولون بشيءٍ من العلم، لكنَّ علمهم قاصر عن سبر غور الأطروحات والآراء، وبالتالي لا يملك أحدهم محاكمتها محاكمة صحيحة، فعلمهم:

١- إما متصل بتلك المسألة معرض عن سواها.

٢- وإما متأخر عن فقه رُتَبِ الأقوالِ لتماثُلِها في الظاهر.

فقصور النظر إما في الطول وإما في العرض:

أما الأوَّل فهو مِن أسباب الخلاف الشائعة قديما وحديثا، فلا ريب أن الناظر في إشكال فرعٍ بمعزل عن سائر الفروع سيجيء جوابه مختلفا عمَّن يثقل كاهلَه باستحضارها، ومن أمعن النظر في طرائق أهل العلم وجد أن فقههم يتمايز كلَّما كان شاملَ النظرةِ لا يعالج إشكالا في باب فتنشأ بتلك المعالجة إشكالات في أبواب، وكلُّ من راعىٰ هذا النظر كان أحرىٰ أن يأتي جوابُه في غاية النظم والاتساق.

أرادَ أبو المعالي الجويني مرةً أن ينقض قولا أصوليا فلمَّا انتهىٰ من ردِّه ذكرَ إشارةً لطيفة تفسِّر اختياره هذا الجواب دون سواه رغمَ

وجود أجوبة صالحةٍ أخرىٰ، لكن فسادَها لا لذاتها وإنما لكونها تفسد مواضع أخرىٰ؛ فقال: (**من سلَكَ غير هذه الطريقة، فقد شوَّش علىٰ بقية أصول الأبواب**)[1]، فمِنْ عمق فِقه العالِمِ أن يستحضرَ أن الإشكالَ القائم ليس أحقَّ بالنظر من الإشكال المستوفزِ للقيام!

ولمَّا طعَنَ السيد رشيد رضا - عفا الله عنه - في حديث أبي ذر في الصحيحين عن مستقر الشمس تحت العرش..؛ قال الشيخ عبد الرحمن المعلّمي -رحمه الله -: (**هذا الطعن يترتب عليه من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله.. وكلٌ من التأويلِ -ولو مستكرها- والوقفِ أسلم من هذا الطعن**)[2].. فمن ثاقِبِ نظرِ الشيخِ المعلِّمي أن قضيَّتَهُ ليست هذا الحديث فحسب، ولو كان كذلك لما فضَّل عليه التأويل المستكره! فكلا الطريقين يُعَطِّل دلالةَ الحديث، لكنه أراد درء المفاسد الأخرىٰ التي تترتب حتما في بقية فروع الشريعة، والتي عبَّر عنها بقوله: (**يترتب عليه من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله**).

يا تُرىٰ! هل يدرك مثلَ هذا **الفقه الشمولي** من يعيد النظر مثلا في باب عدالة الصحابة لأنَّ موتورا ساقَ إلىٰ سمعه قصَّة تافهة مسرطَنةً الأسانيد؟ إنْ فَعلَ هذا فكم بابٍ من الدين سيضطرب عليه؟!

وهل يدرك هذا **الفقه الشمولي** من يوشك أن يتقلَّد أطروحةً قصاراها أن تجعل جملةً من عقائد السلف هلاميةً ليست مجزوما بها

---

(١) التلخيص (٣/ ٨٨).

(٢) الأنوار الكاشفة (٤٠٩).

وإنما هي من جملةِ الآراء المتاحة؟ إن فعل هذا فكم باب من الدين سيضطرب عليه؟!

فهذا **الفقه الشمولي** الممتد عرضا هو الذي يتجاوز معرفة القول إلىٰ معرفة آثاره علىٰ الشريعة، وهو الذي يغيب أحيانا فيورث الخلاف، لكنه لم يغب عن ذهن الراسخين الذي وصفهم الشاطبي رحمه الله بأن شأنهم **(تصوُّرُ الشريعة صورةً واحدة)**[1]، وهذه العبارة الشاطبيَّة تلخِّص هذه الفقرة بكاملها!

هذا ما يتعلق بالجانب الأول من جانبي قصور النظر عن فقه المقالات **وأما الثاني** فمَن نظرَ في تصرفات المحققين من أهل العلم وجَدهم لا يتوقَّفون عند سطحِ المقالات وإنما يتغلغلون لملامسة جذورها، ويكون الحكمُ متوجها للقول وظروف ولادته جميعا.

فمثلا من قال بأن تارك الصلاة لا يكفر استدلالا بآية: **(إن الله لا يغفر أن يشرك به)** أو بحديث عبادة بن الصامت[2]؛ هو أسلمُ عندهم مِمَّن لا يكفِّرُ تارك الصلاة بناءً علىٰ أن العمل غير داخل في مسمَّىٰ الإيمان، معَ أن القولين متماثلان في الظاهر.

ومَن أخطأ من رواةِ البصرة في فهم آيات القدر وهم الذين قال فيهم الإمام أحمد: **(لو تركنا الرواية عن القدرية لتركنا أكثر أهل**

---

(١) الاعتصام (٢/ ٦٢).

(٢) مسند أحمد (٢٢٧٠٤).

البصرة)[1] هم أسلمُ -حتىٰ بالنظر في هذا القول وحده- من المعتزلة الذين قالوا بقولٍ يماثله في صورته الكلية، مع أن القولين متماثلان في الظاهر.

وذلك الذي يردُّ حديثا لأنه لم يثبت عنده هو أسلمُ ممن يردّه لأنه حديث آحاد، مع أن الحديث واحد.. وهكذا تلمحُ فقهَ العلماء المحققين لا يقف عند حروف المقالة البارزة، بل يسري إلىٰ أوصالها ويتتبع ظروف ولادتها الغامضة، ولهذا لـمَّا اعتمد الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تقسيم الأخبار وفق تقسيم المتكلمين نبَّه الناظرَ في كلامه إلىٰ أن هناك من يعتمد التقسيم ذاتَه، لكنه يريد به معنىٰ مختلفا، فقال الشيخ: **(ودع عنك تفريق المتكلمين في اصطلاحاتهم بين العلم والظن، فإنهم يريدون بهما معنىٰ غير ما تريد)**.

وقال ابن حزمٍ مبيِّنا مثل هذا التفاوت الذي لا يراه الناظر الذي يغره تماثل الأقوال: **(قد وافقنا أصحاب القياس في نتائج كثيرة إلا أن مقدماتنا غير مقدماتهم)**[2].

ولـمَّا استعرض الشيخ محمد الأمين مسألةً مبنيَّةً علىٰ أصل القول بالكلام النفسي، قال في آخرها بأنها: **(من المسائل التي فيها النار تحت الرماد)**[3]، أي أنها متفرِّعة عن أصل منحرفٍ خفي ..

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٨٦).
(٢) رسائل (٤/ ٢٧٠).
(٣) مذكرة في أصول الفقه (١/ ٣٣).

يا تُرىٰ! هل يدرك مثل هذا الفقهَ المتعمِّقُ من يتتبع بعض العبارات المستنكرةِ في بعضِ الأطروحاتِ المرفوضة ثم يتطلَّبُ نظائرَ لها لم تُستنكر غافلا عن هذا الفقه المتغلغل لحقائق الأقوال وظروف ولادتِها؟

وهكذا تجد أن الجانبَين اتصلا بفقه للأقوال (**شمولي**) لبقية فروع الشريعة المتصلة بهذه المقالة، وفقه (**متعمِّق**) في القول نفسه، وبتحصيلهما يحصل للناظرِ من الرسوخ في النظر وحسنِ تقويم المقالات الجديدة ما الله به عليم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.. وأكثر الغلطِ بين أهل العلم في تقويم الأطروحات الجديدة هو بسبب فقه يفتقر **للعمقِ** أو **الشُّمول**، ولذا تجد بعض من يَستعجل في اتخاذ موقف ما من أطروحة جديدة من خلال نظرات عجلىٰ لم تجاوز ظاهِرَها حينما يتبيَّن له لاحقا أثر هذا القول علىٰ بقية الأبواب أو بناؤه علىٰ أصل منحرفٍ؛ يعودُ بضع خطواتٍ إلىٰ الوراء ويسرع في لجْمَ اندفاعةِ قلمِه ويتمنىٰ أنه لم يتعَجَّل في الهُتاف.

ومن الخطأ في تقويم الأطروحات المبني علىٰ غيابِ العمق ما قام به صاحب كتاب «العلم الشامخ» من اتهام الإمام أحمد بالبغي وقال بأنه – في مسألة خلق القرآن – (**جعلها عديلَ التوحيد أو زاد .. وبلغ في هذه المسألة ما أمكنه من التعصب**) .. فتعقَّبه الشيخ المعلَّمي بقوله: (**المقبلي لم يسبر غور هذه المسائل.. فلذلك أخذَ يلوم أحمد**

وينسبه إلىٰ الإفراط في التشدد، ولعله لو علمَ ما علِم أحمد لنسبه إلىٰ التسامح)[1].

ويجملُ بمَنْ أدركَ زيفَ مقالةٍ ما أو أطروحةٍ فكرية بسبب استحضاره هذين الفقهَين أو أحدِهما أن يُبيِّن البيان الشرعي ويقلِّلَ حجم اللائمة التي يلقيها علىٰ قَفَا إخوانه ممن غاب عنهم أحد الفِقْهَين أو كلاهما، فمن صنيع السلف أنهم كلما اشتبهت مقالة معينة أن يرفعوا بعضَ ما يترتب عليها من أحكام، وكان ابن عاصم الغرناطي يقول:

وواجب في مشكلاتِ الحكم   تَحسِينُنا الظنَّ بأهلِ العِلمِ

فيستطيع أن يجمع بين الرفض التام لفكرةٍ معيَّنة وبين حفظ حقِّ ومكانة مَن تقلَّدَها، فأشياء كثيرة تجعل الناس يقولون خلاف الحقيقة غيرُ تعمُّدِ الغلط، ومن أدرك هذه الطبيعة البشرية؛ هانَ عليه بناء جدار سامقٍ يفصل بين صلاحهم وآرائهم، ومن بنىٰ هذا الجدار بإحكام استطاع أن يكون مُتَّزِنًا، فلا يظلم الأشخاص بذريعة هدم الباطل **(كما قد يبغي بعض المستنة بزيادة علىٰ ما أمر الله به)**[2]، ولا يظلم الحقائق العلمية أيضا باسم الحفاظ علىٰ مكانة الرجال! وهذا أفدح من الأول فالأمانة التي ترثها الأجيال القادمة منا هي الحقائق العلمية وليست جَثَامين حملتِها!

---

(١) الأنوار الكاشفة (٣٨٣)، وقال ابن تيمية: (أحمد أعلم بمقالات الناس من غيره) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٨٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٨٣).

وقد انقلبت القضية، فلِكونِ الذوقِ الثقافيِّ العصري أمسىٰ لا يكترث بحقائق الأقوال مهما أوغلت في الضَّلال ما دمتَ تعبر عنها بلغة رفيعة وأدبٍ جمّ، فيشتطُّ الرجل أو يبتدع أو يكثر شذوذه وتَنَفُّجُه وادعاءاته بلا برهان ويظل قوله- رغم كل ذلك - في دائرة الرأي المقبول، بينما يُصِيب الآخرُ الحقَّ بعبارةٍ جارِحةٍ فتمجُّه النفوس وتقصيه من دائرة الصواب!

ولا يُقصد بهذا تسويغ القسوة والإغلاظ في القول علىٰ أي حال، وإنما الواجب أن يبيِّن الصواب وما يقتضيه المقام من البيان، وفي أغلب المقامات تكون في (**النكاية العلمية كفاية؛ لو كانت النكاية مقصودة لذاتها**)[1].

(١) الرسائل المتبادلة للمعلمي (٣١١).

طاقات مهدرة

(أنا لا أحبُّ الدخول في المعارك الصغيرة، وأفضِّل الاستسلام فيها حتىٰ لا تستنفد طاقتي فيما لا يفيد).

عبد الوهاب المسيري (١٤٢٩هـ)

دَلَفتُ مرَّةً إلىٰ البريد الشَّبَكي بعد انقطاعٍ عنه.. كان دخولي ذاك قُبَيل إخلادي للنوم ببضعِ دقائق، لمحتُ في أعلىٰ البريد أن ثمة رسالة جديدة لم أفتحها، أدرت سهم النزول للأسفل، وما إن أتممتُها عن آخِرها حتىٰ غلىٰ الدم في عروقي، كان كلُّ حرفٍ فيها قابل لإشعال نارٍ صغيرة داخلَ الضُّلوع، اجتهد راقم الرسالة في نوالِ أمرين: في الكشف عن جانب شديد الحُلكة في قلبه، وفي إغفال اسمه ليتخلىٰ عن مسؤولية الذخيرة الحية من الكلمات المضمَّنة هذا البريد، لتغدو الحروف المتعالية في هذه الرسالة وكأنها صاعقة سماوية نزلت بمحض قَدَر إلهي.. ولم تنبعث من فاعل أرْضي!

كدتُّ أن أضرب صفحا عن كل ذلك فأغلق شريط الصفحة في الأعلىٰ، وأغفو بهدوءٍ تام، لكني انتبهتُ فجأةً إلىٰ آخر مفردةٍ في السطر الأخير.. إنها لفظةٌ أعرفها جيدا، هذه المفردة لا يستعملها مذْ سمِعَها الأصمعيُّ من أفواهِ الأعراب وهو يجوب الفيافي والقِفار غيرُ كاتبِ الرسالة، وكنتُ قبلُ أستغرب من كثرة استعماله لها إلىٰ أن أجراها الله علىٰ قلمه في آخر هذه الرسالة، رغم احترازه وتذاكيه بإخلاء حروفه من طرائقه المألوفة في تشكيل الحروف، وهو يظنّ أنَّ بوسعه ما دام مجهولا أن يكشف عن جانبٍ حالكٍ من قلبه لا يُرىٰ عبر صفحته النَّقية الـمُفْعَمَة بالتعابير الودودة.

بدأتُ مجددا دون وعيٍ أعيدُ قراءة حروفه لأستطيع نقضها واحدًا تلو الآخر علىٰ رأسه، ولأفجأَهُ بمعرفةِ اسمه فهذا لن يخطر له ببال، لكن كنت متحيرًا هل أكتب له اسمه في بداية الرسالة لتنفكَّ عُرىٰ مفاصلِ تفكيره قبل استتمامها! أم في وسطها ليفجأَه وميضُ اسمِهِ وهو مسترخٍ في قراءة الرد! أم في آخرهِ ليرتطم به كالجدار المظلم في أسفلِ المنحدر!

وقررت –دون شعور– أنه برغم انهماكي في تصفية حسابي معه علىٰ هذا النحو؛ فلا بدَّ أيضا أن أحافظ علىٰ رزانتي عنده، وأن أكتبَ له في خاتمة الردّ كلمات تَشِي أن هذا الردَّ القويَّ إنما كُتِب احتسابا وطلبا للثواب، ولم يكن –حاشا لله– غارقًا إلىٰ أذنيه في شهوة الانتصاف للنفسِ وردِّ عادِيَة البغي، فوجدتني أضيف في خاتمة الرد قريبا من السطرين التاليين:

(ليس من عادتي الرد بهذه القسوة، إلا أنني رأيت أن المقام يستوجب ذلك نصحًا لك، وأسأل الله أن يهديَك ويصلحك...) هنا انتهتْ سطورُ رسالةِ النَّقْض، ومع جفافِ آخر حرفٍ فيها وقُبيلِ بعثِها؛ شعرتُ أنِّي أفرغتُ الحرارةَ علىٰ الورق! ولم يبقَ في جوفي جمرٌ يتلهّب!

حينها أعدتُّ النظرَ ابتداءً في السطرين الأخيرين بروحٍ أخرىٰ تختلف عن ما كانت عليه قبل لحظات؛ فقبضتُ علىٰ نفسي متلبّسًا فيهما بحيل نفسيةٍ عديدة لم أنتبه لها إلا بعد انقشاع الغمامة. فَـــ

(ليس من عادتي..) هذه العبارة الشَّهيرة يتعشَّقُها المنفعلون لأنفسهم، فمن عادةِ كلٍّ من يردّ ويؤذيه أن ردّه واقعٌ في خانة الانتصار للنفس أو لبعض القضايا التي يعرف في قرارةِ نفسه –وإن كابرَ– ضآلةَ حجمها؛ أن يكتبَ أوَّل ردِّه: (ليس من عادتي أن أردّ!) كأنّه يبوح لخصمه أنه سينزل إليه في حضيضه قليلا ثم يعود سامِقا في دربه، ثم لمحت العبارة الثانية وهي تحاول أن تغمس نفسها في بحر التظاهر بالشفقة وبذل النصح بينما تفوح من حروفها رائحة الانتصار للذات وتجري من ميزابها مياه الخلل، ثم لمحت ثالثا الدعوات المصطنعة في آخر السطر، نعم.. لم تكن كاذبةً! لكنها لم تكن صادقة بالقدر الكافي، فقد كنتُ قبيل الردِّ مخيرا بين العفو وبين الانتقام، فاخترت –دون شعورٍ– أن أعفوَ بانتقام! وأن أفوزَ بلذَّة الانتصار للنفس دون أن تفوتَني أبَّهة الغافِرِ وصولجانِ الحليم! واستذكرتُ على الفور مع هذه الدعوات التي ختمت بها الرسالة عبارةً لطيفةً في روايةٍ أدبية كنتُ قرأتها في الطائرة ذات ضُحى خريفي؛ تحدَّثَ صاحبُها عن عادتنا المألوفة حينما (نزخرف أهواءنا بكلمات التقوى المضيئة، وكيف نداري ضعف نفوسنا بقبساتِ الوحيِ الإلهي!).

هذا كله قرأته في السطرين الأخيرين اللذَين كُتِبا أصلا بقصد إحداث التوازن بين شطري الرسالة، وألحِقا استبقاءً للقدر الرفيعِ للنَّفس المتبقِّي في نَفْسِ هذا المرسِل! فما حجمُ الصّغَار الذي لاحَ حينما رفعت بَصَري إلى باقي الجواب.. خصوصا بعد تحرير رقبة

الوعي من ضغطة أصابع الغضب؟! أفقتُ والله علىٰ رزمة حقائقَ انتقبتْ لهولِها الحروفُ الماثِلة!

يا الله! كم هي معركةٌ صغيرةٌ هذِهِ التي يلجُها الإنسان دفاعا عن نفسه وتسويدا لمكانته! تلك الدقائق التي تصرِفها في إعادة الاعتبار لذاتك هي ضائعة بحسب الميزان العمري للإنجاز، تلك الأحبار التي تسكبها بحماسة لتبقىٰ مكانتك عاليةً سامقةً في نفوس بشرٍ مِثلك هي تافهة بحسب معدل القيمة والإنتاج.. تلك الأسس الجديدة للعلاقات التي تنظمها لا بحسب الصلاح والتقوىٰ وإنما بحسب التودُّدِ إليك.. تلك الغضبة التي تزفرها.. تلك الطاقة التي تُهدرها.. تلك النفثة التي ترسلها.. تلك الثواني الغالية التي تبددها.. تلك المشاعر الثمينة التي تفتِّتُها.. كلها والله صغيرة جدا جدا.. حتىٰ إنها لا تُرىٰ بالعينِ المجرَّدة المستحضرة لحقائق الحياةِ!

لا تنحصر مشكلة المعارك الصغيرة في كونها تستنزف الإنسان وتهدر طاقته وتحرق زهرة ساعاته كما أخَّرتْ نومي تلك الرسالة أكثر من السَّاعة، وإنما تمتد مشكلتُها لشرعنةِ الخوضِ في هذه الجدليَّاتِ التافهة، فمن طبيعة النفوس حينما تلجُ معركةً صغيرة ويُخجلها كونها ترىٰ قامتَها المديدَة منتصبةً للذودِ عن حماها المقدَّس أن تفرَّ إلىٰ نَسْجِ حيلةٍ نفسية مألوفة؛ وهي **نفخ بالونِ هذا العراك الصغير ببعض الأدلة الشرعية وتطويقه بشي من العبارات المنطقيَّة التي تربَّت بها النفسُ علىٰ سؤال الجدوىٰ** لئلا تضطرَّ للتجاوز عن حظيرة حظوظِها

وأهوائها، ومع توالي الولوج في هذه المعاركِ فإن لدىٰ هذه النفس -حينما لا تجد لجامًا وثيقًا من صاحبها- قابليةً هائلة لأن تنصب داخلَها صنما صغيرا توشك أن تعبده وتنحني إليه ثم تحفز الناس للطواف حوله سبعة أشواط كل يوم! ثم تظلُّ في صراع دائم مع أولئك الذين لا يعترفون بقداسة هذا الحرم! ليست هذه مبالغة، فهناك من لا ينام لأجل انخفاض مستوىٰ جاهِهِ في نفوس بشريَّة! وهناك من ينقبض فؤاده شهرا لأنه حينما ولَج إلىٰ مجلس الرفاق القدامىٰ ولاحَ لهم شخصه ماثلا لم تطرقَ مسامِعَه عباراتُ الترحيبِ بالقدر الكافي الذي كان يتوقَّعه، وهناك من تقرضُهُ كلاليبُ الحزن لأن مشاركته العلمية الرصينة التي وضعها في (قروب واتسابي) لم تحظَ بإعجاب إلا أحد الأعضاء، وزادَ الطين بِلَّة كون هذا العضو عبَّر له عن هذا الإعجاب في حديث جانبي خارج (القروب)! ونحو هذه المواقف الكثيرة التي تُغرق النفوس في وحلِ تعظيم النفس **وتشلّ حركتها عن الركض بانتظام في مضمار الإنجاز**.

وهكذا تحترق طاقة المرء وهو يذود عن حمىٰ مجده الشخصي وتذوي نُضرة أيامه وهو يحرس حظيرة نفسه وأهوائها، وشموخُ النفس عن هذا الحضيض هو مكسب حتىٰ بالحسابات الدنيوية الخالصة لمن لا تنشط نفسه للعفو تعبُّدا أو تعاليا عن هذه المنحدرات السحيقة، وقد تنبّه لهذا بعض أهل الذكاء الاجتماعي، فالعفو والتجاوز هو في كثير من المواقف صفعةٌ للمتجني توجهها بسواعد الآخرين نيابةً عن كَفِّك!

وقد أشار لهذا المعنىٰ الدقيق علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- فقد أخرج ابن أبي الدنيا بسنده عنه قوله: (أول عوض الحليم من حلمه أن الناس أنصاره علىٰ الجاهل)[1] مع أن الأفضل من هذا هو التَّسامُق الحقيقي ليظفرَ المؤمنُ بأجور العفو العظيمة وليفوزَ بتاج العزّ الإلهي الموعود فقد روىٰ مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال: (ما زاد الله عبدًا بعَفْوٍ إلاّ عزًّا)[2]. ثم ليفرغَ طاقته في المعارك الكبرىٰ، ومن استغرق في الذود عن حياض نفسه واسترسل عقله في افتعالِ الحجج ونظمِها في هذا؛ انحلَّت من نفسه شيئا فشيئا عُرىٰ الغضبِ للدين وشرائعه، وكما أشار عبد الوهاب المسيري إلىٰ كونه لا يحب الدخول في المعارك الصغيرة حفظا لطاقته من الاستنزاف فإن هذا المعنىٰ البديع الذي اتخذه المسيري منهجا في حياته أشار إليه قبله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حينما ذكر أن من الأسباب المعينة علىٰ تجاوز أمثال هذه المعارك الصغيرة: (أن يَعلم أنه إذا اشتغلتْ نفسُه بالانتقام وطلب المقابلة ضاعَ عليه زمانُه، وتفرَّقَ عليه قلبُه، وفاتَه من مصالحِه مالا يُمَكِن استدراكُهُ، ولعلّ هذا أعظم عليه من المصيبة التي نالته من جهتهم، فإذا عفا وصَفحَ فَرغَ قلبُه وجسمُه لمصالحه التي هي أهمُّ عنده من الانتقام)[3].

(١) الحلم لابن أبي الدنيا (١٢).
(٢) (٢٥٨٨) ت: فؤاد عبد الباقي.
(٣) جامع المسائل (١/ ١٧٠).

وأساس البلاء في كل هذه الأدواء النفسية هو في ما أسمِّيه بـ**(متلازمة انتظار الثواب واستبعاد العقاب من الناس)** التي تسيطر علىٰ بعض النفوس فتحرمهم وقارَ الهدوء ولذّة العيش وتمام الاتزان؛ لذا لخّص الإمام ابن حزم -رحمه الله- طريق راحةِ هذه النفس التي بين جنبيك بعبارةٍ رفيعة مغموسةٍ في بحر التأمُّل والتجارب، فقال: (طردُ الهمِّ ليس له إلا طريقٌ واحد وهو العمل لله تعالىٰ، وما عدا هذا فضلالٌ وسخف)[1]، فالعلاقة مع الناس غزيرةٌ بالمفاجآت غير المحتسبة، وهي مليئةٌ بالتعرجات والمنحدرات الكثيرة؛ أما الخالق عزَّ وجلَّ فالعلاقة معه شديدة الوضوح إلىٰ درجة مثقال الذرّ! فكلُّ شيء مرصود، فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئا! وإن كان مثقال ذرة! وكفىٰ بالله حسيبا! وقد تواترت عباراتُ أربابِ السلوك في توكيد أهمية إبطال (عقيدة انتظار الثواب واستبعاد العقاب من الناس) حتىٰ قال ابن القيم: سمعت ابن تيمية -رحمهما الله- يقول: **(العارف لا يرىٰ له علىٰ أحد حقا، ولا يشهد له علىٰ غيره فضلا، ولذلك لا يعاتب، ولا يطالب، ولا يضارب)**[2]، وقال الإمام الناسك بشر بن الحارث -في إيجاز تام-: (من عرفَ الناسَ استراح[3])، ولا يعني هذا أن ينصرف الإنسان عن الفَرح الفطري بالقبول من الناس، فالمطالبةُ بهذا مناقضٌ

---

(١) الأخلاق والسير (١٦).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٥٢٣).

(٣) الزهد للبيهقي (١٥٦)، وقال ابن تيمية: (يريد -والله أعلم- أنهم لا ينفعون ولا يضرون) مجموع الفتاوى (١/ ٩٣).

لمقتضىٰ الطبيعة البشرية، ومخالف لظواهر النصوص الشرعية، ومما استنبطه الشيخ الفهّامة ابن سعدي –رحمه الله– من مفهوم آية ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْـمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ..﴾ [آل عمران: ١٨٨] أن محبة الإنسان (أن يُحمد ويثنىٰ عليه بما فعله من الخير واتباع الحق إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسمعة أنه غير مذموم، بل هذا من الأمور المطلوبة التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسنين..)[١].

وأودُّ أن ألفتَ الانتباهَ إلىٰ أن مفهوم المعارك الصغيرة التي تُهدرُ فيها الطاقات هو أوسع بكثيرٍ من معارك الحظوظ النفسية، فحتىٰ في المسائل العلمية هناك معارك كبرىٰ تستحق أن ينفق المرء لياليه لأجلها، وهناك نزاعات فرعية صغرىٰ (أمرها قريب)[٢]، وكلُّ هذه الجوانب جديرة بتسليط الضوء عليها، لكنني اخترت الاقتصار هنا علىٰ معارك الحظوظ النفسية لأن الأمر الذي أتيقّنه أن شطر المعارك الصغرىٰ إنما تقع هناك.. هناك علىٰ ضِفاف النفوس البشرية! وهي تهدر الطاقة وتستنزف النشاط وتطفئ وهَج النفس وتعرقل خُطىٰ المسير، ثم هي توهِنُ قواك عن الالتفات إلىٰ الميادين الكبرىٰ التي تنتظرك!

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٦٠).

(٢) قال البزار عن شيخه ابن تيمية: (لَقَد أكثر رضِي الله عنه التصنيف في الأصول فضلا عَن غَيره من بَقِيَّة العُلُوم، فَسَأَلته عَن سَبَب ذَلِك والتمست مِنهُ تأليف نَص فِي الفِقه، يجمع اختياراتِه وترجيحاته ليَكُون عُمدَة فِي الإفتاء، فَقالَ لي مَا مَعنَاهُ: الْفُرُوع أمرها قريب).

البوارق

تسييج الحصن

(لا يصبرُ عن شهوات الدنيا، إلا من كان في قلبه ما يشغله من الآخرة).

أبو سليمان الداراني (٢١٥هـ)

لم تغِب عن ذاكرته تلك الأيمانُ الغليظة التي عقدها بأن سيهجرَ تلك الخطيئة التي عرقلت مسيرَه الدائب إلىٰ مولاه والتي توشك عودته الدائمةُ إليها أن تطفئ منه إشراقةً وضيئةً يلوح بها محيّاه، لكنَّه لا يَبرح أن يعود إليها رغم توالي عهودِه الحازمة، وما إن ينتهي من مقارفتها إلا وتهجم عليه ساعةُ ندمٍ حالكةٍ فيعلنُ مجددا أنها الفيئة الأخيرة للذنب، وأن غريمه الشيطان لن يفترَّ ثغره بابتسامة ظفرٍ منه بعد اليوم، لكن ويا للخيبة المتلاحقة: الخطيئةُ الأخيرةُ لم تأتِ بعد! وإنما كان كمُسَافرٍ تائهٍ كلَّما توهَّمَ الوصولَ وانتهاءَ الطريقِ ازدادَ الدربُ امتدادا في الأفقِ ووحشةً وتوغلا في المنافي، ومع توالي الانكساراتِ انحلَّتْ عُرىٰ يقينه تدريجيا إلىٰ أن أصبحتْ تلك الخطيئة عادةً، وحين ينتقلُ الذنبُ من كونه نتيجةً تُفعل تحت ضغط الشهوة العارِمة إلىٰ عادةٍ تُقضىٰ بها أوقات الفراغ؛ فالمعركةُ مع الشيطان في هذه المرحلة الحرجة ليست متكافئة مطلقا! وإنما يوشك العبدُ أن يرفع راية الهزيمةِ كلما رفع غريمُه لافتة الخطيئة!

وقدْ نبّه حُذَّاق السلوك علىٰ خطورةِ التطبيعِ مع الخطايا، وصعوبة الصبر عن بعض الذنوب إذا آلت عادةً مألوفةً للعبد؛ كما قال أبو حامد الغزالي -حينما ذكر مرتبة الصبر ودرجاتها-: (الصبر عن

المعاصي أشدُّ، لا سيما عن معصيةٍ صارت عادةً مألوفةً، إذ يتظاهر فيه علىٰ باعث الدين جُندان: جُند الهوىٰ وجند العادة؛ فإذا انضمَّ إلىٰ ذلك سهولة فعله، وخفَّة المؤنة فيه.. لم يصبر عنها إلا صدِّيقٌ، وذلك كمعاصي اللسان، فإنها هينة سهلة، وذلك كالغيبة والكذب والمراء ويحتاج في دفع ذلك إلىٰ أشد أنواع الصبر)[1].

وآخرُ حين يَؤوبُ إلىٰ فراشِهِ ليغفوَ آخرَ المساء، وقبلَ أن تداعبَ عينيهِ أناملُ الإغفاء الرقيقة؛ تغزوه كتائبُ الحسرة علىٰ ما ضيَّع من ساعات يومه وعلىٰ إنفاقه وجه النهار وآخره لاهثا علىٰ شبكات التواصل وراء قضايا جدليَّة لا يملك إزاءها دفعا ولا نفعا، وكل هذا علىٰ حساب مشاريعه وأحلامه التي كانت قبل سنواتٍ قريبةٍ قطارًا طويلا يفحصُ الأرض، وأمست اليومَ عربةً صغيرةً يدفعها بيدٍ مرتعشة!

وأمثالُ هذه الهزائم الموجِعة يشهدها سلوكُ كلٍّ منَّا في حياته بصورةٍ دائمة؛ وهناك أسباب موضوعية للهزيمة تتعلق بوهَنِ الإرادةِ وضمورِ العَزيمة وخبوِّ مشاعلِ المراقبةِ الدقيقة وارتخاء عُقَدِ الإصرارِ مع طول العهد.. لكن يلفتُ انتباهي معنىٰ ذائعٌ في كتب السلوك والسير إلىٰ الله تواردَ علىٰ ذكره والطَّوافِ حوله أئمة هذا الشأن، وهو في تغيير إستراتيجية المدافعة للخطرات الباعثة للولوغ في شهوات النفوس.

---

(١) الأربعين في أصول الدين (٢٥٢).

أكثرُ ما يعمله أحدنا عادةً في مدافعة الخطرات المشغلةِ عن الطريق هو في الاجتهاد دأبا في إخلاءِ القلب من شهوة الذنب وجعله فراغا تامًا من الخطرات الشيطانية أو في تخليته من الاهتمامات المنخفضة، وهذا هو شطرُ الدواء الذي ظل بعضنا يتطلبه -بلا شعور- سنواتٍ مديدة، ولم نلمس له أثرًا مجديا في استضاءةِ أرواحِنا الخابية.

والإصلاح الحقيقي الذي يبدِّدُ كيدَ الشيطان حين يزيِّن الشهوات يبدأ بتغيير مسارِ المعركة بالاشتغال علىٰ عمارة القلب بالمعاني الشريفة، ومن شأنِ هذه المعاني أن تزاحم ما يضادُّها وتطردها عن استيطان حمىٰ القلب.

فالذي يأسىٰ لكثرة ولوغه في الشهوات واستجابته لأدنىٰ هاتفٍ لها، ليست معركته الرابحة في العمل دأبا علىٰ إلغاء مركَّب اللذَّة في الشهوة، فالشهوات ستظل شهوات بما أودَعَ الله فيها من خصائص الجذب والإثارة.

إنما انتصاراتُ العبدِ الحتمية علىٰ كيد الشيطان وزخرفته للخطايا تحصل حينما يباغت الشيطان بتغيير طريقة المدافعة، فبدلَ النواح الدائم علىٰ ذنبٍ معين؛ ينتقل العبدُ لمسار الاجتهاد في استصلاح صلاته مثلا، ومن شأن الصلاة أنها إذا صلحت فإنها لا تصلح وحدها، ويشتغل علىٰ غمرِ قلبه بفيوض الأعمال القلبية ومحبةِ مولاه، ويزداد إجلالا له بالتفقه في معاني أسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا، ويدأب علىٰ

أن يملأ فؤاده بالأشواق العارمة لموعودِ الله الموشِك للمتقين وما إلىٰ ذلك من المعاني الإيمانية الرفيعة.

فالمسيرُ إلىٰ الله ليس أصلا بتفريغ القلب من كافة الخطرات الضالَّة فقط، ثم تركِهِ قاعا صفصفا لا ترىٰ فيه عِوَجا ولا أمتا، وإنما هذا صنيعُ قومٍ مِن المتصوفة ضلُّوا الطريق؛ وقال عنهم الإمام ابن القيم -رحمه الله- موبِّخا: (**حفظوا شيئا وغابت عنهم أشياء، فإنهم أخلوا القلوب من أن يطرقها خاطر؛ فبقيت فارغة لا شيء فيها، فصادفها الشيطان خالية، فبذر فيها الباطل..**)[1].

وكذلك الذي يشكو مثلا احتراقَ زهرةَ عمرِهِ في أفرانِ شبكاتِ التواصل ليس دواؤه فقط أن يقرأ مجلداتٍ في هجائِها وعدمِ جدواها وعائدتها عليه، فهو قد اقتنع بهذا اقتناعا راسخا رسوخَ الجبال الراسية، إنما الخطوة الفعليَّة الأولىٰ تبدأ في ملء الفراغ الذي سيتركه هجرُ جدلِ الشبكات! وتهيئة النفس وإلحاقها تدريجيا في برامج جادَّة تزاحم الفراغ المنتظر الذي يشوِّق للنظر في فضول المعارف، فليس المطلوب من المرء الانكفاءُ عن غير المفيد إلىٰ الفراغ!

وعليه أن يصطبر علىٰ حواجزِ وحشة الاهتماماتِ الجديدة حتىٰ يألفَها، وسيأتي مزيد بيان لهذا المعنىٰ في فصل (إبطاء وقت البوارق)، وحينما يفلح في غرس اهتمامٍ رفيعٍ له سواء كان علميا أو دعويا أو

---

(١) الجواب الكافي (٣٥٩- ٣٦٠).

غير ذلك من أمور تنفعه في دينه ودنياه، فإن موادعتَه للاهتمامات غير المجدية يغدو نتيجة ناجزة وليس غايَةً نائية!

وقد انحنَتْ أقلام علماء السلوك وهم يشرحون أن القلب إناءٌ لا يقبل الفراغ بطبعه، وحيثما امتلأ بمادَّة ما؛ زاحمتْ ما عداها وطردتها عن مجاورتِها، فهذا الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله حينما أراد شرحَ بعضِ أسبابِ دفعِ القلق، ذكر أن منها (**الاشتغالَ بعمل من الأعمال أو علم من العلوم النافعة، فإنها تلهِّي القلبَ عن اشتغاله بذلك الأمر الذي أقلقه.. وهذا السبب أيضا مشترك بين المؤمن وغيره**)[1]، وهذه الوسيلة التي ذكر الشيخُ أنها مشتركة بين المؤمن والكافر راجعةٌ لإستراتيجيةِ المدافعة بتسييج الحصون الداخلية بدل الإغراقِ في مداواة آحاد المكدرات!

وروى ابنُ القيم لشيخه ابن تيمية أن بعض الشيوخ قال له: (**مثالُ آفات النفس مثالُ الحيات والعقارب التي في طريق المسافر، فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها، والاشتغال بقتلها: انقطع، ولكن لتكن همتك المسير والإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير؛ فاقتله ثم امض على سيرك فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جدا، وأثنى على قائله**)[2].

---

(١) الوسائل المفيدة (١٨).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٢٩٩).

وهذا المعنىٰ الشريفُ الذي استحسنه أبو العباس وأثنىٰ علىٰ قائله؛ قريبٌ مما نحن هنا بصدَدِه، فينتصرُ السائر علىٰ خصمه اللدود حينما يبرح الأرض التي يحسن الخصمُ اللدود المنازلةَ فيها، ويغيِّر مسارَ المعركة، **وينتقل لتسييج الحصن بدل الانهماك في مطاردة اللصوص!**

بين طريقين

(يُستفاد بمعرفةِ أحوال الخلق أحوالُ المحقِّينَ من المُبطلين، والنَّاقصين من الكاملين.. ويُتَوصَّل بذلك إلىٰ سلوك الحق واجتناب الباطل، ويُشكر الله تعالىٰ علىٰ نِعَمِه والعافيةِ مما ابتلىٰ به كثيرا من خلقه).

ابن شيخ الحزَّامين (٧١١هـ)

ثمةَ شخصياتٌ عديدة في مدوَّنة التاريخ حينما تفتش نتاجَها علىٰ عجلٍ، وتقلب سيرتَها تقليبا أوليًّا يستولي علىٰ ذهنكَ شعورٌ لا تملك دَفعَه أنَّ بينها اتصالا لا مرئيا وعِناقًا حميميًا يختزل الزمن ويختصر المسافات المتباعدة، فبينا أنت تفتِّشُ ترجمةً لعالمٍ أو نِتاجا فكريًا لشخصيةٍ ما إذ تتداعىٰ لك شخصيةٌ أخرىٰ تلتقي معها بصورة خفية وتتصافحُ أكفُّ الشخصيَّتَينِ بحرارة وترحيب من وراء حجابِ الأزمنة، فتلتقيان إما في التجربة والموهبة والمكانة أو بعضِ ذلك، وقد تمتدُّ أحيانا نقاطُ الالتقاء التي تبدو لأول وهلةٍ للناظِر لتشملَ طبيعة التفكير العقلي أو قصةَ التكوين الروحي أو لونَ المزاج النفسي، بل ربَّما وجدتَّ بينَ بعضِ هذه الشخصيات المتباعدة زمانا ومكانا التقاءً عميقا حتىٰ في بعض المقولات والعبارات، ولا ريب أن تشابهَ القلوب يورثُ تشابه المقولات، كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١١٨].

لكن ستلاحظ أنَّك كلما توغلتَ في الفحص والاقتراب؛ استبانت لك بوضوحٍ وجوهُ الالتقاء، وكذلك أبصرتَ بجلاء وجوهَ الافتراق؛ تماما كما تشتبه علىٰ الناظر ملامحُ الوجوه البعيدة، وتتحدُ في ناظريه سُحنات العابرين في الطريق المجاور حتىٰ إذا ما اقترب منها وحاذاها؛ أبصرَ العلامات الفارِقَة بوضوحٍ تام.

من تلك الشخصيات التاريخية البارزة التي لفتَ انتباهي ابتداءً نقاطُ الالتقاء بينهما من جوانب عديدة: شخصية أبي حامد الغزالي (٥٠٥هـ) وشخصية عماد الدين الواسطي (٧١١هـ)، فبين هذين العلَمَين الكبيرين تركيبةٌ مشتركةٌ لافتةٌ للانتباه: ماتَ كلا الرجلينِ عن قرابةِ خمسة وخمسين عاما غزيرةٍ بالبحث والتحولات، فكلاهما تقلَّب بين محطات فكرية استغرقتْ سنواتٍ من عمره إلىٰ أن حطَّ رِحَال تحولاتِه في موضعٍ رآه صوابا، ثم التفتَ الرجلان إلىٰ الوراءِ، وامتشقا القلم، ثم كتبا سيرتهما الذاتية، وأخذا يسردانِ للأجيال المقبلةِ حكايةَ التَّرحال.

كلاهما تحدَّث عن مروره بمرحلةٍ مبكرةٍ من الشكِّ والقلق وفقدانِ حالةِ التناغم مع المحيط الفكري الأوَّل، وأشارَ لاستشعاره هاتفا داخليا عميقا يدعوه إلىٰ سرعة الالتحاقِ في قافلة البحثِ والتأمل؛ قال الغزاليُّ عن طبيعته الضاربة في أعماق جذوره منذ الصِّغَر:

(كان التعطُّشُ إلىٰ درَكِ حقائقِ الأمور دأبي وديني، من أول أمري، وريعان عمري، غريزةً وفطرةً من الله وضعها في جبلَّتي لا باختياري وحيلَتي)[1].

وقال الواسطيُّ عن فقدان تناغمه مع بيئته الفكرية الصوفيَّة الأولىٰ:

(١) المنقذ من الضلال (٥).

(من ألطافِ الله تعالىٰ بي أن خلَقَ فيَّ غريزة في حالِ الطفولة كنت أعلم بها أن هؤلاء ليسوا علىٰ شيء، وأن الحقَّ وراءَ ما يَدَّعونه)[1].

ثم بعد هاتين الجملتَين القصيرتين تقاذفت مركبَ الرجلين أمواجٌ عنيفةٌ من التقلّبات.

وكان كلاهما ميَّالا ولو في زَمَنٍ من عمره إلىٰ الوحدة والانعزال عن الناس، فقد قال أبو حامد عن وقته بالشام:

(أقمت به قريباً من سنتين لا شغلَ إلا العزلة والخلوة، والرياضة والمجاهدة، اشتغالاً بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق)[2] وحكىٰ ابن رجب عن الواسطي بأنه كان **(منزوياً عن الناس، لا يجتمع إلا بمن يحبه، ويحصل له باجتماعه به منفعة دينية)**[3].

وكلا هذين الرجلينِ رزقه الله نفْسًا شفَّافة وقلما أخَّاذا وبيَانا يسيل عذوبةً ورِقَّة، ومَنَحَه قدرةً فائقةً علىٰ النفاذ لأغوارِ النفسِ البشرية، ولهما تغلغل لطيف في تلافيف الأرواح واستكناهِ مقاصدِها وأحوالها؛ ربَّما وَرِثاه عن إدمان النظر في أحوال الصوفية ومنازل السير ودقائق التجريد السلوكي، ولم يقصُرا توظيفَ هذه الموهِبة الخلَّاقة التي حباهما الله إياها علىٰ المجال المعرفي الذي اشتركا أيضا في

---

(١) العماديات (٣٦).

(٢) المنقذ من الضلال (٤٩).

(٣) ذيل الطبقات (٢/ ٢٨٢).

الكتابة فيه وهو (معالم السير إلىٰ الله وقواعد السلوك والتزكية) بل ظَهَرَ هذا حتىٰ في مجالِ نقضِ الأفكار المنحرفة والبحثِ عن أسباب تدهور كثيرٍ من الخلقِ في أوديةِ الضلالة، ومن ذلك الإشارةُ الغزاليَّة البديعة التي ذكر فيها أن أسبابَ وقوع طائفة في الكفرِ لا خفاءَ الأدلَّة عليهم وإنما مصدر كفرهم (**سماعهم أساميَ هائلة كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وأمثالهم، وإطناب طوائف من متبعيهم وضلالهم في وصف عقولهم وحسن أصولهم ودقة عقولهم..وحكاية عنهم أنهم مع رزانة عقلهم وغزارة فضلهم، منكرون للشرائع والنحل، وجاحدون لتفاصيل الأديان والملل.. فلما قرع ذلك سمعهم.. تجمَّلوا باعتقاد الكفر**)[1].

ويقابلُ هذه الاقتناصة البديعة جدا من أبي حامد عبارةُ عماد الدين الواسطي حينما ذكر معرفةَ وذكاء كثيرٍ من أهل بيئتِهِ الأولىٰ بضلال طريقهم وفساد شيوخهم، لكنهم يتظاهرون بتعظيم مشايِخِ الضَّلال ورؤوس الطريقَة ليحظوا بالمقابل بتعظيم الدهماء والعامَّة الذين يسرُّهم هذا التَّعظيم وتقرُّ به أعينهم؛ فقال الواسطي:

(**وجدت فيهم أذكياء يعلمون أن الأمر ليس كذلك، لكن حصل لهم بسبب تعظيمهم لشيوخهم رئاسة بين الناس وفتوح، فهم يقيمون جاه شيوخهم إبقاء علىٰ حظوظ أنفسهم**)[2].

---

(١) تهافت الفلاسفة (٧٤).

(٢) العماديات (٣١).

وكلا هاتين العبارتَينِ للشيخينِ الغزالي والواسطي يعرفُ كل قارئ عمق غورِ دلالتهما إذا أحسن التأمُّلَ في أحوال الناسِ وما وراء ظاهِرِ مقالاتِهم.

والرجلان تفقَّها على المذهبِ الشافعي، وإن كان الواسطي انتقل آخرًا إلى المذهب الحنبلي واختصر فيه كتاب الكافي لابن قدامة في كتابٍ سماه (البُلغة)، وكلاهما له عناية بالغةٌ بتفاصيل السُّلوك وكتبَ في ذلك رسائلَ عديدة بقلمٍ عذب، فأما رسائل الغزالي في السُّلوك فتلقفتها الأيدي عبر العصور وملأتِ الدنيا وشغلت الناس بما فيها من خطأ وصواب، وأمسى أبو حامدٍ خلال قرون متطاولةٍ مِن أكثرِ علماء الإسلام تأثيرا وامتدادا فكريا سواءً ما كتبه في الفقه أو الأصولِ أو السلوك أو الردِّ على الطوائف المنحرفة كالفلاسفة والباطنية، ولئن حظيَ أبو حامد بالانتشارِ والذيوع لتوقُّدِ ذكائه وروعة تأليفهِ وقوة عارِضَتِه وأسبابٍ أخرى أكثرَ من الواسطي، فلَقد حظيَ الواسطي بتوفيقِ الله بإصابةِ الحقِّ أكثرَ من الغزالي، فإنَّ أبا حامد قد أعلَنَ في ختام سيرته الذاتية خلاصةَ رأيه ومنتهى تجربته أن (**الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتَهم أحسنُ السير، وطريقَهم أصوبُ الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق)**[1] وهذه المحطةُ التي ألقى عندها أبو حامدٍ عصى ترحالِه وحلّ في سُرادقِها رباطَ أمتعتِه؛ مرَّ بها الواسطي أيضا، لكنها لم تبلَّ ظمأَه، فتجاوزَها، وقال عن أصحابِها:

---

(١) المنقذ من الضلال (٤٩).

(أنِست بهم بعض الأُنس.. وتغذَّىٰ قلبي بذلك من جَوْعة، فإن الجائعَ يتغذَّىٰ بمهما كان قوتا!)[1].

ثم واصل الواسطيُّ المسيرَ يذرع الأرضَ ويرمق السماءَ بحثا عن وميضِ النور، إلىٰ أَنِ اهتدىٰ أخيرا -بعد تنقله بين خمس محطَّات فصّلَها في سيرته المكتوبة- لجماعةٍ من أهلِ الحديثِ في دمشق وطار بهم فرحا وثناءً؛ وقال عنهم بلغةٍ احتفائيَّة:

(وجدتهم عارفين بحقائق العلم الذي أنزل من السماء علىٰ محمد مسارعين إلىٰ إقامة أوامر الله تعالىٰ.. وليست أصولهم أصول المتكلمين، بل أصول عقائدهم علىٰ الآيات والأخبار الصحيحة وأمرُّوا الصفات كما جاءت بلا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه .. ووجدت آثارها في قلوبهم عند صلاتهم وأذكارهم ودعوتهم إلىٰ الله تعالىٰ .. وهم أقوم بالدين من كل من رأيته في عصري هذا!)[2].

ومن ألطف ما في سيرةِ الواسطي من المعاني هو ما عقَدَه من مقارنةٍ بين المحطَّة الصوفية الأخيرة وبين أهلِ الحديث فذكر بعض ما يفضل به أهلُ الحديث الصوفيةَ، وما يفضل به الصوفيةُ أهلَ الحديث، ومما ذكره من امتياز الصوفية أنهم (هامت قلوبهم [بربِّهم] بهتةً وتعظيما وإجلالا)[3] وظهرَ عندهم من أحوال الحب والهيام

(١) العماديات (٤٢).

(٢) العماديات (٤٧- ٤٩).

(٣) العماديات (٤٨).

ومقتضياته وتفريغ الفؤاد ما فاقوا به سواهم، ثم تغلغل -كعادته- في طبائع النفوس معتذرا لأصحابِهِ أهلِ الحديث، فقال:

(من هو في إقامة الدين، وإظهار شرائعه وشعائره، لا يليق به أن يصطلم كاصطلام أولئك الذين لم يبق لهم متسع إلا خالقهم، ولو تفرغوا عن الاشتغال .. لم يعجزوا عن مقامهم ولم يقصروا إن شاء الله، لكن الشغل بجزئيات الشريعة، وإقامتها مع انصراف الهمِّ الشديد إليها، يوجب أن تبقىٰ عند المقيم لها والمهتم بها بقية من طبعه ونفسه وبشريته، ليقابل النفوس بها ..)[1].

وعلىٰ رأس أهل الحديث الذين لقيهم عمادُ الدين الواسطي في دمشق شيخ الإسلام ابن تيمية، فحثَّه أبو العباسِ علىٰ مطالعةِ السيرة النبوية، وكأن أبا العباس أراد أن يقف الواسطي بنفسه علىٰ مدىٰ مجانبة الطرائق الصوفية عمليا للهدي المحمديِّ الأول، فتركت هذه النصيحة التيمية النفيسة أثرها علىٰ شخصية الواسطي وتكوينِهِ الفكري وفي ما سطّره لاحقا من رسائل سلوكية، وكتبَ الواسطيُّ مختصرا لسيرة ابن هشام، ثمَّ كان ابن تيمية يعظمه ويجلُّه ويحتفي برسائِلِه في نقضِ خزعبلات الاتحادية ويشيرُ إليها، فقال في رسالته في حقيقة الاتحادية والتي بعثها إلىٰ نصر المنبجي: (وقد كتبت في ذلك كتاباً ربما يرسل إلىٰ الشيخ وقد كتب **سيدنا الشيخ عماد الدين** في

(١) العماديات (٤٩).

ذلك رسائل)[1]، بل كان ابن تيمية يسمي عمادَ الدِّينِ الواسطيَّ: **جُنَيدَ وقته!**[2]، وكتبَ إليه كتاباً من مصر، وفي صَدْرِه: (**إلىٰ شيخنا الإمام العارف القدوة السالك**)[3]، وهذه العباراتُ الفخْمة غزيرةٌ بالدلالةِ علىٰ فضلِ الواسطي، فأبو العباس كان دقيقا في عباراته، لم يكن يوما موزِّعَ ألقابٍ بلا حسابٍ في سوق التَّمادُح والمجاملات[4].

وسبب إلقاءِ أبي حامدٍ -واللهُ أعلم- رباطَ أمتَعتِه عند أروقة الصوفيَّة وإعلانه أنهم محطَّته الأخيرة خلافا للشيخ الواسطي الذي غذَّ المسير إلىٰ أهل الحديث، أن أبا حامدٍ وضع بيدِه الرِّتاجَ علىٰ الباب وأغلقَ الطريق علىٰ نفسه فلم يعلم أن وراءَ محطة الصُّوفيَّة محطةً أخرىٰ أكثر صوابا وأكمل اهتداءً! وإنما توهّم أنهم غاية مراد الباحثِ عن الهدىٰ، وذلك صواب بلا ريبَ إذا ما قورنوا بالخيارات الأخرىٰ التي افترض أبو حامد في ابتداءِ رِحلَتِه البحثيَّة أن الهدىٰ لا يخرج عنها بحال، فقال بلغةٍ جازِمة:

(أحضرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق: ١ - المتكلمون ٢ - الباطنية ٣ - الفلاسفة ٤ - الصوفية .. فقلت في نفسي: الحق لا

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٤٦٤).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (١/ ٣٢٦).
(٣) المرجع السابق (١/ ٣٢٦).
(٤) ترجمَ ابن حجر لحمادٍ الحلبي؛ ثم قال: (وكان ابن تيمية يعظمه ويعترف بصلاحه، وحسبك بذلك) الدرر الكامنة (٢/ ١٩٣).

يعدو هذه الأصناف الأربعة، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق، فإن شذَّ الحق عنهم، فلا يبقىٰ في درك الحق مطمع)[1].

لقد أدركَ أبو حامدٍ أهدىٰ هذه الخياراتِ الأربعةِ التي افترضها، وإن فاتَه خيارٌ أهدىٰ منها سَبيلا وأقومُ قِيلا، إذْ مِن عادةِ المسافِرِ الضَّاربِ في الأرضِ أن تفوتَه معالمُ كثيرةٌ في غايةِ الوضوح إذا لم يستَجْلِها بطَرْفِه، وهذا المعنىٰ الدقيق شرحه أبو العباس ملتمِسا لأبي حامد العذر بقوله:

(سبب ذلك أنه قد علم بذكائه وصدق طلبِهِ مَا فِي طريق المتكلمين والمتفلسفة من الاضطراب، وآتاه الله إيمانا مجملا -كما أخبَرَ بِهِ عَن نَفسِهِ- وصار يتشوَّف إلىٰ تفصيل الجملة فيجد فِي كَلامِ المشَايِخِ وَالصّوفِيّةِ ما هو أَقرَب إلَىٰ الحَقّ؛ وَأَولَىٰ بِالتّحقِيقِ من كَلام الفَلَاسِفَةِ وَالمتكلّمِين والأَمرُ كَمَا وَجَدهُ لَكِن لَم يَبلغه مِن المِيرَاثِ النَّبوِيّ الذِي عِندَ خَاصَّة الأُمَّةِ مِن العلومِ والأَحوَالِ)[2].

وأنتَ إذا أمعنتَ النظر فوقَ خطِّ السنين الممتدّ عبر القرون أدركتَ أنَّ هذين الرجلين: الغزاليَّ والواسطيَّ -رحمهما الله- وإن التقيا فِكريًّا في بعض محطات العبور، إلا أنَّ بدايةَ الغزاليِّ خيرٌ من بدايةِ الواسطي، وخاتمة الواسطي خيرٌ من خاتمة الغزالي، فقد تَرَعْرعَ

(١) قال الغزالي في سيرته: المنقذ من الضلال (١٣).
(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٦٤).

الواسِطيُّ في كَنَفِ بيئةٍ موغِلةٍ في اعتقاد الخرافة والمخاريق، ولم يكن نموُّ عقلِهِ في الأطرافِ من تلك البيئة الغرائبية، بل إنَّ أباه القريبَ الذي وُلد مِن صلبه هو شيخُ الطائفة الأحمدية الرفاعيَّة البطائحية الغالية، ولاشكَّ أن قوةَ القرابة وانعقادَ آصرةِ النَّسَبِ سببٌ قوي باعثٌ للتمسُّكِ بما عليه الآباء والأجداد، لكنَّ الفتىٰ الواسطيَّ الباحثَ عن الحقِّ منذ طفولته اطَّرحَ كلَّ ذلك الجاهِ المنظوم، وانطلق ينشد الصَّواب بين الطوائفِ نشدانَ الضالّة، وسارَ في الديجور إلىٰ أن لمعتْ له بوارقُ أهلِ الحديث، ثم نشَط في الردِّ والتحذير من هذه الطوائف الصوفية البدعية التي فارقَها بعدَ اهتدائه إلىٰ السنَّة في الجملة، وكان يرىٰ أن هذه الطوائف الصوفية الغالية هم سَبَبُ تسلُّطِ الكفار علىٰ المسلمين في ذلك القرن، فقال بوضوح:

(والذي أعتقده -إن شاء الله- أن التَّتَر لم تستولِ علىٰ الإسلام إلا بشؤم هذه الطوائف وظهورهم)(١).

وحينما انتقلَ عماد الدين الواسطيُّ إلىٰ ضفّةِ أهل الحديث وانتظم نفسه في سِلْكِهِم،لم تبرح روحَه الصافيةَ مشاعرُ التوقِ إلىٰ امتثالِ قواعد السلوك، ولم تغادرْ شِغَافَه اللهفةُ إلىٰ تفصيلِ مقاصد التزكية التي عرفها من قبلُ مكدَّرةً بأوحال التَّصوُّفِ ومُلتاثةً بحضيض الأقوال الرديئة حول الحلول والاتحاد والفَنَاء، فسنَّ قلمَ الأديب

---

(١) العماديات (٣٥).

وخَلَطَ مدادَ السلفي مع مادَّة الصوفي، وأخذ في تنميقِ رسائلَ مشرقةٍ في شرحِ السلوك الأثَرِي والفقر المحمدي وحاول تخليصها من جملة المعاني الفاسدة، واستعملَ فيها بعضَ ألفاظِ المتصوفة ومراتِبهم وعباراتِهم، ثم انتفع برسائله تلك جماعةٌ من نسَّاكِ أهلِ الحديث الذين حطّ عندهم رحالَه؛ قال ابن رجبٍ عن رسائل الواسطي وانتفاع أهل الحديث بها:

(ألَّفَ تآليفَ كثيرة في الطريقة النبوية، والسلوك الأثري والفَقرِ المحمدي؛ وهي من أنفعِ كُتبِ الصوفية للمُريدين، انتَفَعَ بها خلقٌ من متصوِّفَةِ أهلِ الحديث ومتعبِّديها)[1].

دأبَ عماد الدين الواسطي في هذه الرسائل علىٰ إرساء مفهومِ **الطريقة المحمَّدية**، وبيانِ مبايَنةِ الطرائق الأخرىٰ لهذا الطريق العُلوي الشريف، ولِتَعلمَ مدىٰ وضوحِ رؤيته المسلكية بعد مخالطتهِ أهل الحديث؛ فانظر أوَّل جملةٍ يخطُّها من كتابهِ قواعد في السلوك إلىٰ الله تعالىٰ، فقد وضع الواسطيُّ هذا العنوان في أعلىٰ الصفحة: **(قاعدة مختصرة في طريق الفقر علىٰ منهاج الرسول ﷺ)**[2]، ثم يقول خلالَ ذلك الفصل شارحا مرادَه -بتعبيرٍ أدبي-: **(إياك أن تأخذ الفقر من أسفل، وتترك الشرب من رأس العين، وتشرب من المياه البعيدة عن منبوعها، التي قد خالطها السباخ المالحة، واصفرت ألوانها لبعد مائها**

(١) ذيل الطبقات (٢/ ٢٨١).

(٢) قواعد في السلوك إلى الله تعالى (٢٣).

عن منبوعِها)[1]، ولم يقتصر علىٰ إرساء المفهوم الأثري دون توجيه نقداتٍ لاذعة للطرائق الأخرىٰ المباينة، فخاضَ في ذكر بعض طرائق الصوفية، وسمَّىٰ الطريقة الشَّاذليَّة، ثم قال عنها بلسانِ المجرِّب المغتبطِ بظفَرِهِ بأنوارِ الهداية الأثَريَّة: **(هي رُوحانية غريبة، بينها وبين الطريقة المحمديَّة بونٌ من بعض الوجوه، وإنما يعرف ذلك البون من عرفَ الطريق المحمدي)**[2].

ولا أدري هل هذا هو سببُ صُدوفِ المتصوفة قديما وحديثا عن عمادِ الدين الواسطي وعزوفهم عن رسائلِه التزكويَّة حتىٰ إنهم لا يذكرونه رَغم حروفِه العذبة المنظومة في مقامات السلوك؟

أو أن السبب وراءَ ذلك التجاهل هو حملة الواسطي الشديدة علىٰ عبارات الحلول والاتحاد ونفوره الشديد بعد الهداية من أيِّ كلامٍ يظهر منه معنىٰ الاتحاد ولو بطريق اللزوم[3]، كما يروي الذهبيُّ أن شيخه الواسطيَّ كان يعظِّمُ نجم الدين الكبرىٰ ولكنَّه عدلَ عن ذلك التعظيم، يقول الذهبي حاكيا هذا الموقف: **(كان شيخنا عماد الدين**

(١) المرجع السابق (٢٤).

(٢) المرجع السابق (١٥١).

(٣) يشتد بعض المهتدين إلى أنوار الحق في مبايِنَة أهل طريقته قبل الهداية وذلك لمعرفته حقائق أقوالهم، قال نعيم بن حماد الخزاعي –وكان شديدا على الجهمية–: أنا شديد عليهم، لأني كنت منهم، أشار لهذا المعنى اللطيف وشرحه وضرب له الأمثال ابن تيمية في الفتاوى (١٠/ ٣٠٣).

يعظِّمه ولكن في الآخر أراني له كلاما فيه شيء من لوازم الاتحاد..)[1]، بينما الصوفية المعاصرون يحسِّنون القولَ في أمثالِ ابن عربي؟

أو أن السَّبب وراء ذلك هو جنوحُ الواسطي لطريقة السلفِ في الصفات ومجانبته الأدلة الكلامية، حتىٰ إنه ليحثُّ السالك حتىٰ في رسائله السلوكيَّة المحضة علىٰ **(مجانبةِ ما أحدثه أهل الكلام من الرأي والمعقول، ومطالعة كتب أهل السنة في إثبات الصفات؛ ككتاب التوحيد لابن خزيمة، وكتاب النقض للدارمي)**[2]، بينما غالبُ الأروقة الصوفيةِ المعاصرة تتجشأ من المشاربِ الكلامية؟

كلها تفسيراتٌ محتملة قريبة، والأمر اليقينيُّ هو أنَّ ما وصَلَنا من هذه الرسائل الروحانية حسنٌ نافعٌ في استصلاح السِّلوك للمتعبدين، وفيها إضاءاتٌ أَثَرِيَّة مُشْرِقَةٌ في معالمِ السَّير إلىٰ الله وعمارة قلبِ السالكِ بمولاه، وفي الفصل القادم سأعرض لذكرِ مَفهومٍ سلوكي عالٍ تردَّدَ في رسائلِ الواسطي.

---

(١) تاريخ الإسلام (١٣/ ٥٣٧).
(٢) قواعد في السلوك (١٩٢- ١٩٣).

إبطاء وقت البوارق

(الأحوال قد تُتَكَلَّفُ مباديها، ثم تتحقق أواخرها).

أبو حامد الغزالي (٥٠٥ هـ)

أرواحٌ كثيرة تستوطن شغافَها لهفةٌ عارمة للانطلاق في قوافل المطامح العالية، وتتضرم في دواخلها نيران الأشواق كلما لامستْ أسماعَها أخبارُ الموفَّقين الذين أَلِفتْ أرواحهم مكابدة المشاقّ واعتادت جوارحهم معانقةَ المتاعب، فتعزمُ علىٰ المسير علىٰ الطريق طمَعا في درَك أسنىٰ الأماني، لكنها تمشي بضعَ خطوات في بدايات الطريق ثم تشعر بسريان ثِقَلٍ يكبِّل الجوارح كلما تابعت الخُطىٰ، فتعود محلولةَ العُرىٰ إلىٰ نقطةِ انطلاقها الأولىٰ، وتؤجل موعدَ رحلة المسير لأجلٍ غيرِ مسمىٰ.

من المعاني المشرِقة التي احتفىٰ بها عمادُ الدين الواسطي في رسائله الرُّوحانيَّة معنىٰ تأخُّرِ الفتوحِ الإلهية وإبطاء البوارق الرحمانية عَن سالكِ الطريق ومتحسِّسِ النُّور، فحينما يقرِّرُ العبدُ الاستقامةَ علىٰ الطريقِ المستقيمِ ويعزمُ علىٰ استصلاح حالِهِ في طريق السير إلىٰ الله، ويجمع الهمّ علىٰ الصُّعود في معارجِ الاهتداء، فلا بدَّ أن يوطِّن نفسه أن وراءَ نِيَّته الشريفة هذه، مرحلةَ اختبارٍ لصدقِ عزيمته وأرضُ ابتلاءٍ لحقيقةِ همَّته، فإنَّه لمنَ المعلوم أن الأولياءَ والصالحين وكلَّ مَن بلَغ أيَّ رُتْبةٍ في العلمِ أو السلوكِ إنما راضَ نفسَه عليها وعلىٰ تكاليفها زَمَنا، لا يبغي عنها حِوَلا، حتىٰ إذا ما أَلِفَتْها روحُه، واعتادت

عليها نفسه، وزاحمتْ في قلبِه ما يعارضها من الأقوال والأحوال والعوائد؛ أصبحتْ سجيَّةً معتادةً له وأذهبت عناءَ المكابدة وتفلُّتَ الخطام، وأغلبُ السَّالكين الذين تنقطع أنفاس إصرارِهم ويرتخي حبلُ العزيمة في أيديهم، إنما استسلموا خلالَ منطقةِ الابتلاءِ تلك.. لحظةِ تصادمِ السجايا الجديدة المراد توطينُها بالعوائدِ القديمة المراد ترحيلُها، والسالكُ لا يعلم بحقيقة الصِّراع الداخلي المضطرم، إنما هو يجدُ في الخارجِ آثارَه فقط، وأبرزُ آثارِه: دبيبُ فتورٍ يحاولُ ثنيَه عن الاستمرار ويحفزه لتأجيل رحلة الانطلاق، ليترك ما عزَمَ علىٰ بلوغِهِ من المقاماتِ الرفيعة، ويحسم المعركة الداخليَّة لصالحِ العوائد القديمة، وهو يستشعرُ كلَّما استسلم له وسقطَ لموضعه الأوَّل بنوع ارتياحٍ بعد أن كانت أعصابه مشدودة، وإنما هو ارتياحٌ عابر يخبو سريعا، ارتياحُ بحَّارٍ أزمعَ السفرَ فعبثت بقاربِه الأمواج القريبة، فقفل للشاطئ بعد معاناةِ أوائل أمواجِ البحر!

شرح الواسطي في رسائله مرحلةَ معاناةِ المبتدئين وتفرق همِّهِم بسببِ إبطاءِ وقتِ البوارق، فقال في أحد المواضع:

(المبتدئ متفرق الهم، متشعب الخاطر بين أمورٍ متنوعة، أولها: تحصيلُ همَّةٍ يرتقي بها في علومه وأعماله وأحواله، فهو متعوب في تلونه فيها، تارةً يفقدها، وتارة يجدها.. **وهو متفرقٌ -أيضا- من إبطاء وقت البوارق**، فتارةً يلوح له قمر الإيمان حتىٰ يتوهَّم أنه قطّ لا يتوارىٰ عنه، فيعيش في تلك البهجة والنور زمنا ما أطيبه وما أحلاه! وتارةً يمرُّ

علىٰ قلبه غيوم الطبيعة وغانها، فتحجبه عن ذلك حتىٰ كأنه لم يعرف ربه، ولا وجد رائحة أنسه، ولا ذوق معرفته وقربه..)[1].

ثم استرسل بذكر أثرِ دوام الهمَّة الجاذبة وتدرُّجِ البوارق والأحوال علىٰ العبد.

من أراد مفارَقة أحواله القديمة، فإنَّ عليه أن يروِّض نفسه علىٰ معاناةِ الأحوال الجديدة، ولو لم يجد لها اعتيادا وألفةً وانقيادَ جوارحَ في أوائل العزم، ولو كان يجرُّ أركانَه إليها جرًّا، ويُكره نفسه عليها إكراها، **فإن معركة الاصطبار علىٰ المشاقّ أكثرها ضراوةً إنما يكون في أوائل هذا الطريق**، كما قال الواسطي شارحًا هذا المعنىٰ في موضعٍ آخرَ من رسائله، ومقدِّرا فيه مدَّة زمنية يزولُ بعدها في العادةِ كلَفُ التَّكليف، وينحلُّ عن السالك بعدها رباطُ العوائدِ القديمة:

(والوسيلة إلىٰ الاستقامة في الأعمال: رياضة النفس علىٰ المحاسبة في الجوارح، والمراقبة في الخواطر، وإكراه النفس علىٰ التقاعد علىٰ النهوض إلىٰ الأوامر، والصادق إن شاء الله إذا تدرب علىٰ هذه الرياضة سنةً، نرجو أن يذهب عنه كلف التكليف، وتصير التكاليف محبوبةً عنده، يتلذذ بعملها، ويتألم إذا فاته شيء منها)[2].

---

(١) قواعد في السلوك (٢٠٦- ٢٠٧).

(٢) قواعد في السلوك (٢١٧).

واستمرَّ الواسطي يعود إلىٰ معنىٰ إبطاء وقت البوارق ويكرّ عليه بقلمه أثناء شرحِ بعض المطالب الإيمانية المعيّنة، فإنه حين ذكر الأسباب الموجبة لمحبَّة الله تعالىٰ لعبده، قال:

(من الأسباب: التوجه إلىٰ حصول محبة الله تعالىٰ له، ومن كان متوجها إلىٰ ذلك فإنه يطلب مراضي من يطلب محبته له بكل ممكن، ويتجنب مساخطه، ويحفظ دبيبَ الخواطر في سرِّه حذرا أن يجري فيها مكروه فيمقت.. فإذا فتح له بهذه الهمة وبهذا الأعمال، ورزق دوام الاستعانة بمولاه علىٰ حصول هذه المرتبة، ومضت عليه الأيام والشهور والأعوام، ووجده قائما فيها بالأوامر، منتهيا عن الزواجر، طاهرَ السرِّ عن الهيئات المؤخرة المبعدة، لا يوجد منه إلا الطهارة ظاهرا وباطنا، فمثل هذا يُرجىٰ أن تناله هذه الرحمة الخاصة، برحمة الله ومشيئته ولا يستبطئها ولا بعد حين)[(١)].

وانظر لتعبير الواسطي بمفردةِ (الاستبطاء) فإن طبيعةَ السَّالِكِ لا سيما مع لوعةِ الغربة ومفارقةِ العوائد أن يتعجَّل أوانَ الثمار، فإن لم يلمح لموعَ بوارقها عن قريبٍ انحلَّت عرىٰ عَزيمته، وعاد إلىٰ سابق أحواله.

وأغلبُ ظني أن هذا المعنىٰ الذي تردَّدَ في رسائل الواسطي بصور مختلفة، واستعملَ أسلوبَ الاستعارة في التعبير عنه، لم ينقلْه

---

(١) قواعد في السلوك (٥٩- ٦٠).

فقط نقلا مجردا من كتب السلوك التي سبقته، وإنما ورِثَه من معاناةِ بحثِه الدؤوب عن وميضِ أنوار الهدىٰ سنواتٍ طويلة؛ واستبطائِه موعدَ الوصول، حتىٰ قال عن نفسه مرةً:

(**طالت في ذلك أسفاره، وامتدَّ أمده وانتظاره، نحوا من خمس عشرة سنة، يتشامُّ، فلا يجد بارقا، ويتطلَّع فلا يرىٰ باديا ولا شارفا)**[1].

ولم ينفرد الواسطيُّ في الإشارةِ إلىٰ معنىٰ إبطاءِ وقتِ البوارق ثم لموعِها بعد المكابدة، فقد سبَقَه لتفصيلِ ذلك المعنىٰ أشبهُ الناسِ به سيرةً أبو حامدٍ الغزالي، فـ (إبطاء وقتِ البوارق) من المعاني المشتركة بين الرجلَين، فقد ذكر أبو حامدٍ في كتابِه (المنقذِ من الضلال) إشارةً عابرةً سريعةً محتمَلة، لكنَّه فصَّل القولَ في كتابه (الإحياء) في أكثرِ من موضع، وشرحَ فيه معنىٰ المداومة علىٰ التكلُّف وعناء المكابدة في البدايات، حتىٰ تصبحَ طبعا لا يصبر عنه السالك، وضرب له المثال ليتضح المعنىٰ، فقال:

(ومن أكثر من ذكر شيء وإن كان تكلفا أحبَّه، فكذلك أول الذكر متكلف إلىٰ أن يثمر الأنس بالمذكور والحب له، ثم يمتنع الصبر عنه آخرا فيصير الموجَب موجِبا والثمر مثمرا، وهذا معنىٰ قول بعضهم كابدت القرآن عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة ولا يصدر التنعيم إلا من الأنس والحب **ولا يصدر الأنس إلا من المداومة علىٰ المكابدة والتكلف**

---

(١) قواعد في السلوك، مقدمة المحقق (١٢).

مدة طويلة حتىٰ يصير التكلف طبعا فكيف يُستبعد هذا؟ وقد يتكلف الإنسان تناول طعام يستبشعه أولا ويكابد أكله ويواظب عليه فيصير موافقا لطبعه حتىٰ لا يصبر عنه، فالنفس معتادة متحملة لما تتكلف)[1].

وسئِل شيخ الإسلام ابن تيمية عن مَن يريد الاستقامة علىٰ الطريق لكنه كلما سار عليه قليلا خارَتْ قواه وانحلّت عرىٰ عزيمته، فذكر للسائل أمورا تنفعه يستقيم بها علىٰ الطريق، ثم أشارَ لمعنىٰ إبطاءِ وقت البوارق الرَّحمانية، فقال:

(وليصبر علىٰ ما يعرض له من الموانع والصوارف، **فإنه لا يلبث أن يؤيده اللّه بروح منه**)[2].

أما غلاةُ الصوفية فقد تواردوا علىٰ هذا المعنىٰ المسلكيِّ أكثرَ من الواسطي، وشحنوا به رسائلَهم وأشعارهم ومواجيدَهم، لكنَّهم حمَّلوه دلالاتٍ هائلةً غير شرعية، واستعملوا في التعبير عنه حروفا ناشِزةً لا تليق بالعلاقة مع ربِّ العزَّة سبحانه وتعالىٰ، فإنهم لجهلهم افترضوا علاقةً بين الخالق والمخلوق تُسامِتُ علائقَ المخلوقين، فأنشدوا الأشعار المتضمنة صِدق رغبةِ المريدِ وإقبالِه، وتمنّع الرب المحبوب عن مطاوعة الوصال، وأنشدَ بعضهم في مثل هذا:

أنا صبٌّ بمــن هويتُ ولكن ما احتيالي لسوء رأىٰ الموالي؟!

---

(١) إحياء علوم الدين (٣٠١- ٣٠٢)، وانظر إشارته الأخرى للمعنى نفسه في (٢/ ٢٩٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٣٧).

وقال الآخر في معناه: **سقيم لا يُعاد ومريد لا يُراد!**

والإشكالُ لا يقف عند ابتداعِ هذه الأحرف وقلّةِ احتشامِها وتوقِّيها، وإنما يمتدُّ لإيحاءاتها الخطيرة بأن الصُّدود ربما يكون من جهةِ الربِّ بلا سببٍ قائمٍ من جهةِ العبد، وأن العبدَ ربما استفرغَ المطلوب منه لكنه حُجِب عن مولاه ظلما لغيرِ تقصيرٍ، وهذا المعنىٰ لا يحصل بحالٍ في العلاقةِ بين العبد وربِّه تعالىٰ، وهو يتناقض مع الدلائل الشرعية المتضافرة، قال ابن تيمية مبيِّنا هذا الشَّطح الصوفي:

(وهذا الموضع يغلط فيه كثير من الناس في تمثلهم بالأشعار وفي مواجيدهم فإنهم يتمثَّلون بما يكون بين المحب والمحبوب والسيد والعبد..وهذا التمثيل يشعر بأن العبد صادقُ الإرادة تامُّ السعي وإنما الإعراض من المولىٰ، وهذا غلطٌ بل كفر، فإن الله يقول من تقرب إليَّ شبرا تقربت منه ذراعا، ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة)[1].

فهؤلاء المتصوِّفَةُ بالَغوا في تشقيقِ معنىٰ إبطاءِ وقتِ البوارق وحمَّلوه دلالاتٍ أجنبيةً عن الشرع والأدب، فالشَّطح الصوفي يوحي بصلاح حال العبد ووقوع الجفاءِ من جهة الرب، والمعنىٰ المسلكي الصحيح الذي يراد التنبيه عليه أن المطالبَ الرفيعة في العلم والعمل تُنال بالاصطبار علىٰ عوائق الطريق وأن **ثمةَ مرحلةً حتميةً تَلي عزيمةَ**

---

(١) الاستقامة (٢/ ٥١- ٥٢).

السير إلىٰ الله، وتَسبق بوارقَ التأييدِ الرَّحمانيَّة؛ هذه المرحلة مفازةٌ تُقطع براحلتي الصَّبرِ والالتِجاء.. وفي هذه المفازةِ ضلَّتْ طريقَها أكثرُ الرواحِل!

العوارض

بالون الزَّهْو

(جاء في الأثر: «اللهم أرنا الأشياء كما هيَ». وهذا كلام حسنٌ غاية، وأكثر الناس لا يرون الأشياء بعينها).

ابن الجوزي (٥٩٧هـ)

أَكْثَرَ الكاتبون عن طلبِ العلم من الحديث عن عوائق التعلم الخارجية وكثُر الطرقُ حولها والكلامُ في آثارها، وربما بهذا الإيغال المفرطِ فيها نَغفُل نحن السالكين عن تلك العوائقِ الداخلية التي تلِج لِواذا بين حنايا الفؤاد وتتورَّم تدريجيا حتىٰ تكاد تحجب عنا رؤية مواضع الأقدام، ما لم يمنّ الله علينا بسرعة الاستئصال قبل استفحال الداء، فهَبْ أننا نفذنا بجلودِنا من عوائق الطريق الخارجية فأنىٰ لنا الاحتراسُ بلا عناءٍ من خصمٍ داخليّ أشد ضراوةً يسكننا ويتربص بنا الدوائر وهو يتمترس بِنا علينا ؟! قال العباس بن الأحنف مصورا حالَ هؤلاءِ خصومِ الداخل:

قلبي إلىٰ ما ضَرَّني داعي يُكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي إذا كان عدوِّي بين أَضلاعي؟![1]

حينما أقول باسترخاء تامٍّ إنَّ العراقيل الداخلية ربما كانت أشد فتكا بطالب العلم فأنا أعني منها ما يتصل بأوهام التَّنَفُّجِ ورؤيةِ الذَّاتِ والولعِ بكثرةِ الالتفاتِ لتلك الخطوات اليسيرة والمنجزاتِ الأولية في طريق التعلُّم، وما يستتبع ذلك عند الاستسلام لتلك الخطرات السادرة في الوهم من ذلاقة اللسان بثَلْبِ الأكابر واستحلاء الوقيعة في الأئمة واستسهال التعريض بهم ولو بحروف خجلىٰ من وراء حجابِ

(١) ديوان العباس بن الأحنف (١٧٨-١٧٩).

الفذلكات اللفظية والمناورات النفسية، دعني أكنْ أكثرَ وضوحا ونفاذا للمقصود وتحليلا للظاهرة: طالبُ العلم حينما يزداد معرفةً ويرتقي في مدارجِ المعرفة، فإنه يستشعر جيدا ذلك الارتقاء ويحسُّ بدبيبِهِ في ضلوعه كما يستشعر الطاوي سَرَيان لقيماتٍ من طعامٍ طيِّبٍ في جوفه، وكما يستشعر الظامئ جريانَ حسواتٍ من ماءٍ زُلالٍ في غليله، بل الشعورُ بلذَّةِ اتساعِ رُقعةِ العلمِ في بُقَعِ الجهل داخلَ النفس لا تعادله لذائذ صنوفِ الطعام والشراب؛ قال ابن حزم الأندلسي: **(لذَّةُ العالم بعلمه!)**[1]، وهنا تحديدا تتولد القابلية لانتفاخ بالون الزهو بالتحصيل وتنبعث مشاعر الانتشاء بالتعلم، فهي أمرٌ معتاد يصحب مراحلَ الطلبِ كلِّها، ويُحسِنُ تجفيفَ منابعِهِ وتقليصَ مناطِقِ نفوذِه على الفورِ الموفَّقون في طريق الطَّلَب.

وهذا الشعور يتدفق عادةً بغزارةٍ في المراحل الأولية وما جاورَها أيامَ غضارةِ الشباب وتورّدِ وَجَناتِ المعارف، لذا جرت العادةُ أن تكثر الكتابة والتآليف في المستدركات والمآخذ العلمية في أوائل الطلب ثم تختفي عن الأنظار رويدا رويدا تلك اليد المولَعَةُ بجمع المآخذِ وفرزِ التعقيبات وتخرج من الجيب بيضاءَ من غير استدراكٍ كلما تبحر طالب العلم في الفنون، وفي الجملة مَن كثر علمُهُ في كلِّ فنٍّ انضبطَ إنكاره! وكما قال العلامة المبرِّد عن كتابِهِ الذي وَضعه في تتبع أغلاط سيبويه:

(١) رسائل ابن حزم (١/ ٣٣٥).

(هذا شيء كنا رأيناه في أيام الحداثة فأما الآن فلا!)[1]، ولما ذكر الشيخ محمد دراز شبهةَ بعض المتفاصِحين حينما يتوهَّمون قدرتهم علىٰ محاكاة القرآن العزيزِ أشار إلىٰ أن ذلك (ظن لا يظنه بنفسه أحد من الكبار المنتهين، وإنما يعرض -إن عرض- للأغرار الناشئين)، ثم نصح الشيخُ هؤلاء المخدوعين أن يتمعَّنوا في أساليبِ العرب، وأن يدرسوا طرفًا من علوم الأدبِ، حتىٰ يُحكموا ملكتهم النقدية، فإن فعلوا ذلك تلاشىٰ بالون الزهو من بين أضلاعهم، وأبصروا الحقيقة كما هيَ، فقال عن أحدهم: (أنا له زعيم بأن كل خطوة يخطوها في هذه السبيل ستزيده معرفة بقدره، وستحل عن نفسه عقدة من عقد الشك في أمره)[2].

* * *

وقد تحدَّث كثير من السالكينَ طريقَ طلب العلم عن استشعارِهم انتفاخَ بالون الزهو وانفتالَ حبالِ البأوِ بين جنَبات النفس في بعض مراحل التعلّم ثم استنامتهم عاجلا إلىٰ وَأْدِه ودسّ رِمَّته في التراب بعد المرور بموقفٍ صادمٍ أعاد لهم الاتزان النفسي والاعتدال الشُّعوري، فهذا إمام العربية أبو زكريا الفراء كان يختلف أيام الطلبِ إلىٰ العلامة الكسائي، فقال له بعض الناس: ما اختلافُك إلىٰ الكسائيِّ وأنت مثله في العلم؟! فأعجبته نفسه وداخَله شيء من الزهو، فناظرَه مناظرةَ

(١) الخصائص، لابن جني (٢٠٦).

(٢) النبأ العظيم (١٠١).

الأكفاء بعد أن كان يسائله وينتفع به انتفاعَ الطلاب؛ يقول الفرَّاء مصوِّرا لحظاتِ انفجارِ «بالون» الزهو العلمي بين جنبيه عند تلك المناظرة:

(فكأني كنت طائرا يغرف بمنقاره من البحر!)[1].

وأمثالُ هؤلاء البوقاتِ والطُّبول الذين حفزوا أبا زكريا الفرَّاء علىٰ مناظرة الكسائي ثم أوقعوه في هذا الإحراج العلمي هم علىٰ مرّ العصور أكثرُ مَنْ يرعىٰ بذورَ الزَّهو والانتفاخ في نفوس طلاب العلم، فأكثر ما يغرُّ السالك في دروب المعرفة المتطاولة ويبعث في نفسه الفتورَ في مسالكها الممتدة هو هذه الاستنامة لتقويمات العامة والجهَّال، ومن قال عن أحدهم الذهبي: **(الجاهل لا يعرف رُتْبة نفسه فكيف يعرف رُتْبة غيره؟!)**[2]، ولـمَّا أكثرَ الوقيعةَ في كبارِ الأئمة أحدُ الأفاضل من أهل العلم، قال الفقيه ابن العربي المالكي مفسِّرا حالَه: (اتّفق كَونُه بَينَ قَوم لا بَصر لهم إلا بالمسائل فإذا طالبهم بِالدليل كاعُوا، فيتضاحك معَ أصحَابه مِنهم..)[3]، **فلا شيءَ أصلحَ للسَّالِكِ وأجمعَ لمعاني التواضع في قلبه من الإعراض عن تقويمات الفارغين والاعتبارِ بحال الأكابر** وإدامة النظر في تراجم الأئمة؛ قال الإمام أبو حنيفة:

---

(١) بغية الوعاة للسيوطي (٢/ ١٦٣).

(٢) السير (١١/ ٣٢١).

(٣) السير (١٨/ ١٨٩).

(الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إليَّ من كثيرٍ من الفقه)[1].

وقد ذكرَ مدارُ أسانيدِ السنَّة وملتقىٰ طُرُقِها الإمامُ محمد بن شهاب الزُّهْرِيُّ انتفاعَهُ بأحدِ الأكابرِ في إعادةِ الاتِّزان للنفس والاعتدال في التقييم بعد إخلاده لشيءٍ من الوهْم الشُّعُوري، فقال حاكيا تجربته الذهبية:

(كُنت أحسب بِأنّي أصبت من العلم فجالستُ عبيدَ الله بن عبدِ الله فكأنّي كنت في شِعبٍ من الشِّعابِ)[2].

* * *

التواضعُ العِلْمي ليس معنىٰ تَرَفيًّا يُقرأ في قراطيس أدَبِ الطَّلب، ويُلقىٰ في مفتتح حلقات تحفيظِ المتون، ويُطوىٰ بعد ذلك علىٰ الرفِّ ليعلوَه غبارُ السنين، وإنما بالإضافة إلىٰ كونه واجبا شرعيا وردَ التهديد المخيف الذي ترتعد له فرائص المؤمن عند وجود مقدار ذرَّةٍ تناقضه في القلب! كما في الحديث الذي رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود مرفوعا: (**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرَّة من كبر..**)[3]؛ هو أيضا من أعظمِ بواعثِ الاستفادة والانتفاع بالعلماء

(١) جامع بيان العلم لابن عبدالبر (١/ ٢٥١).
(٢) السير للذهبي (٥/ ٣٤٤).
(٣) (٩١).

والاستزادة من المعارف، فالمزهوُّ بِعِلْمِه المدلُّ بمعارفه قد وضع في قلبه حجازًا داخليا يحول بينه وبين الانتفاع بما استهان به، كما قال تعالىٰ: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، ووضع الشيخ محمود شاكر -رحمه الله- يدَه علىٰ موضع الداء، فقال: (**الاستهانة داء وبيل يطمس الطرق المؤدية إلىٰ العلم والفهم**)[١]، وهو ذريعةٌ عاجلةٌ للولوجِ في نفقٍ مظلمٍ من جَرِّ مشارِط الثَّلبِ إلىٰ رقابِ الأئمة وإطلاقِ ألسِنَةِ الجُهَّال في تقويمهم من طرفِ اللسان ورأسِ القلم واستحلاءِ خفضِ مقامِ إمامٍ ورفع مقامِ آخرَ دون حاجة ماسَّة، وبلا منهجيَّة علميَّة منضبطة تطمئن لها النفوس وتذعن لها القلوب.

ومعرفةُ مقامات الأئمة وحفظ مكانتهم -حتىٰ عند التخطئة- ليست مجرَّدَ نافلةٍ معرفيةٍ يثابُ فاعلها ولا يعاقب تاركها؛ بل إن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يرىٰ أن حفظَ مقامِ الأئمة وتركَ كلِّ ما يجرّ إلىٰ ثلمهم هو أحد ركني إقامة الدين! فيقول:

(**دين الإسلام إنما يتم بأمرين: أحدهما: معرفة فضل الأئمة وحقوقهم ومقاديرهم، وترك كل ما يجر إلىٰ ثلمهم. والثاني: النصيحة لله سبحانه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، وإبانة ما أنزل الله سبحانه من البينات والهدىٰ**)[٢].

---

(١) مقدمة تحقيق أسرار البلاغة (٢١).

(٢) إقامة الدليل (١١٠).

ولأنَّ كثيرا من سلوكيات الزهو وانتفاش الرِّيش تتوارىٰ عادةً وراءَ ستارِ رقيقٍ تسمِّيه النُّصح والنَّقد والاستقلال، وتظنُّ أن ثمةَ تناقضا ومنافاةً بين الأمرين: حفظِ مقامِ الأكابر، وبيانِ ما ينفع الناس من أمر دينهم عند مخالفة أقوال العلماء بمنهجية صحيحة؛ نبَّهَ أبو العباس إلىٰ أنه لا يضيق بجمعِ الأمرين إلا جاهلٌ بأحدهما، فقال بوضوح:

(إنما يضيق عن ذلك أحد رجلين: رجل جاهل بمقاديرهم ومعاذيرهم، أو رجل جاهل بالشريعة وأصول الأحكام)[1].

وأبو العباس حين استقرَّ في رُوعِهِ هذا الأدب العالي المستنبطُ من أدلة الوحي الكثيرة سَرىٰ في تطبيقاته ورسائلِهِ ومشروعِهِ التصحيحيِّ كلِّه، ولا يمكن استدعاءُ نماذجَ كثيرة من كتبه لغزارتها مما لا يحتمله هذه الفصل، لكني أذكر موضعا واحدا يلحُّ علىٰ قلمي عند هذا الموضع، وستلحظ فيه شدَّةَ احتفالِهِ باستصحاب هذين الأصلين: حفظ مقامات الكبار، والنصيحة والبيان. فحينما غلَّطَ بعضَ المجوزين للحيل من المفتين، ورغم انطلاقه في فتياه من النصوصِ وجمعِ كلام الأئمة؛ كتَبَ كلماتٍ تؤكد للقارئ بأنه لم يفارق منهجيته الصارمة ولم يكفَّ عن استحضارِها حتىٰ تحتَ وطأةِ الجدل والردِّ والنَّقض؛ فقال:

(إنما ذكرنا هذا الكلام علىٰ استكراهٍ شديد منا لما يشبه العينة فضلا عن الوقيعة فِي أعراض بعض أهل العلم، ولكن وجوب النصيحة

(١) المرجع السابق (١١١).

اضطرنا إلىٰ أن ننبه علىٰ ما عيب علىٰ بعض المتقدمين من الدخول في الحيل، ونحن نرجو أن يغفر الله سبحانه لمن اجتهد فأخطأ، فإن كثيرا ممن يسمع كلمات العلماء الغليظة قد لا يعرف مَخرجها)[1].

وانظر قوله –بعد سوقه الأدلة واحتجاجه بأقاويل العلماء–: **(علىٰ استكراه شديد منا.. وجوب النصيحة اضطرنا.. نرجو أن يغفر الله سبحانه .. كثير ممن يسمع كلمات العلماء الغليظة قد لا يعرف مخرجها)!**

فأين هذه المنهجية التيميَّة الصَّارِمَة ممَّن نَصَبَ خيمة النابغة الذبياني الحمراء في سوقِ عُكاظ وتوكأ علىٰ أريكةٍ مريحةٍ داخلَها وطفِقَ مسترخِيا يرفع ويخفض في مقامات الأئمة والعلماء وأولي الفضل بلا حاجة أوَّلاً، وبلا منهجيةٍ منضبِطةٍ ثانيًا؟!

* * *

لا ريبَ أن قدرًا من الزَّهوِ والفرحِ بالعلم والتحصيلِ هو أمرٌ طبعي مركوز في طبائع النفوس البشرية، وقد ذكرتُ بعضَ شواهدِه، وحلَّلْتُ شيئا من طبيعتِه واستطردت بذكر بعضِ آثاره؛ بل حتىٰ استشعار قدرٍ زائدٍ عابرٍ من السرور بالعلم والفرح بجريَانه بين الضلوع معنىٰ فِطري يَتعذَّر نفيه وتصعب مكابرتُه، إنما المراد تطويقُ تلك المشاعر الطبعيَّة بمعاني التواضع العلمي وذلك باستحضار جوانب القصور

---

(١) المرجع السابق (١٠٠).

من جهة، ومعرفة مقامات الأكابر من جهة أخرىٰ، فأكبر خديعةٍ ربما التهمَها طالبُ العلم في بدايات الطريق استشعارُه أنه لا يفصله عن مقاماتِ الأئمة إلا قراءة بِضعةِ كتبٍ وحفظُ عدةِ متون واستظهار بعض الشروح! إنه حين يُمعِنُ النَّظرَ في التراجمِ والكتبِ يدرك أن المسألة ليست كذلك، وأن ذلك مجردَ وهمٍ جميلٍ كان غارقًا فيه إلىٰ القاع، وأنه –حتىٰ علىٰ افتراض استواء التحصيل العلمي– فقد سبق الربانيون بخصال متعددة كالصبر والورع والزهادة والانكفاف عن المشتبهات والعمل بالعلم، وكل واحدة من هذه الخصال لها متونٌ روحية وشروحٌ وحواشٍ ومطولات، أي أن لها مدارج خاصة كخصلة العلم تماما ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

وقبل أن أغادرَ نقطةَ انتفاخ (بالون) الزَّهو والافتخار العلمي الذي يهجُمُ علىٰ القَلب، ثم تجفيف منابعِهِ وتقليص آثارِهِ باستحضار جوانب القصور أوّلاً ومعرفة مقامات أولي الفضل ثانيًا، أودُّ أن أذكر نموذجين معاصرَين وهما مثالانِ جَلِيَّانِ يلخِّصان هذا الفَصْل.

أحدهما العلامة المعروف سعيد الأفغاني عميدُ كلية الآداب بجامعة دمشق رحمه الله وهو ذو يد طولىٰ في معرفة التراث والتاريخ واللغة، **والآخر** فاضلٌ من أحذق من أعرفُ من طلابِ العلم وأنفذهم غورا إلىٰ بطون المسائل وأكثرهم حفاوةً بتحرير مواضع الإشكال في مضايق التعارضات.

وكلاهما روىٰ عن نفسه حكاية معبرة، وكلتا الحكايتين متشابهتان في المقدمات والنتائج، **أما العلامة المحقق سعيد الأفغاني** فقد جرت حكايته بُعيد قيامه بمجهود علميٍّ جبارٍ أَضْناهُ في أعوامٍ متَطاوِلَة، وداهمت عِطْفيهِ بعد إتمامه مشاعرُ الزهو والانتفاخ، لكن كانت تنتظره مفاجأة كبرىٰ لم تخطُر بباله مطلقا، وقد قصَّ العلامة الأفغانيُّ حكايتَه هذه في مقدمته التي كتبها لترجمة أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها المستخرجة من كتاب سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي، فقال:

(لكي يخرج القارئ بفكرة مجملة عجلىٰ عن المجهود العظيم المعجز الذي قام به المحدثون وخاصة الذهبي في سير النبلاء، أذكر أن الإمام الزركشي في كتابه عن السيدة عائشة: «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة علىٰ الصحابة» ذكر من الرواة عنها: اثني عشر راويا، وأني أضفت عليهم نحوا من ثمانين راويا، جمعت أسماءهم في أعوام متطاولة، بعد الاطلاع علىٰ كتب الطبقات المخطوطة والمطبوعة، وعلىٰ مصادر كثيرة جدا، حتىٰ التي لا يُظنُّ أن يكون فيها شيء عن السيدة عائشة، فأوصلت بعد هذا العناء عدد الرواة عنها إلىٰ التسعين، وأنا أرىٰ أني أتيت بما لم يأت به الأولون ولا الآخرون!

ولكنني لم أكد أقرأ هذه الرسالة للذهبي، وأراه قد زاد علىٰ هؤلاء التسعين نحو المئة، وأدهشني أنه أورد أسماءهم مرتبةً علىٰ الحروف...! أقول: **لم أكد أجد ذلك حتىٰ انطفأ فيَّ ذلك الزهو**

المنتفخ، وعرفت أني وألوفا من أمثالي! مهما جهدنا لا نبلغ أن نكون من أصغر تلاميذ مؤرخينا من أهل الحديث، لقد وَقَفوا أنفسهم علىٰ خدمة العلم، فأخلصوا له الخدمة، فآتاهم الله في ذلك المعجزات)[1].

نعم.. انطفأ ذلك الزهو المنتفخُ في صدر العلَّامة سعيد رحمه الله، وسينطفئ حتما هذا الزَّهْو الذي ما زال منتفخا وسيأخذ حجمه الطبيعي جدا في كلِّ صدرٍ يوفقه الله لمعرفة مقامات الأئمة ومقادير العلماء أو يجيل النظر بإمعانٍ فيما تركوا من علومٍ ومعارف!

وأما صاحبي فله قصةٌ لطيفة مع بعض الرسائل العلميَّة المعاصرة، أفضىٰ بها إليّ مشافهةً، ثمَّ التمستُ منه أن يبعثها مرقومةً، فكتب رسالةً جميلة جدا، حلَّلَ فيها طبيعة الظاهرة، وما تركته عليه من آثار، وضمَّنَها الدرسَ المستخلص منها، فقال:

(تمر بالقارئ والباحث لحظات في ثنايا التنقيب العلمي ينتفخ فيها الزهو الذاتي وهو لا يدري بنفسه، ثم يمر به مشهد يوقفه علىٰ حقيقته! ومن أكثر هذه المشاهد مروراً بي: سبق المعاصرين بعقود لما أنا حديث العهد بلذة فهمه! ومن ذلك مثلاً: أذكر مرةً أنني قرأت في بعض المصادر المعتزلية المتقدمة تقريرات كلامية؛ فظهر لي من ارتباطاتها وتلازماتها مع بعض المسائل الكلامية الأخرىٰ في المذهب الأشعري، وأثرها «العكسي» في ظهور الفكرة الأشعرية؛ ما فرحت نفسي به، بل

(١) صفحات من صبر العلماء لعبد الفتاح أبو غدة، حاشية صفحة (٣٧٦- ٣٧٧).

حدثت نفسي بوجوب أن أكتب عن هذا الموضوع الذي أحسست باكتشاف الخيوط العقدية المضمرة له، ثم بعد مدة وقفت علىٰ بضع رسائل عقدية أكاديمة مسجلة في أعوام ١٤٠٥هـ وما حولها، ومطبوعة في تلك المرحلة، نبّهت علىٰ هذه المسائل بكل هدوء، فكأنما كانت وخزة انفجر بها بالون الزهو الخفي في عطفيّ! وهذا مشهد تكرر معي كثيراً، حتىٰ أورثني الاحتراس من صدمة الاكتشاف الأولي أن لا تجرني إلىٰ رعونات حداثة العهد بالأمر! بل صار من المتكرر معي وأنا أقرأ في بعض المسائل التي تهمني وتعمقت في بحثها أن أطوي الصفحة وأعود لأنظر سنة نشر الكتاب، ولا أكتفي بما رقم في أوله من «تاريخ النشر» إذ قد تكون طبعة متأخرة، بل أذهب لذيل مقدمة المؤلف وأرىٰ السنة التي كتب فيها المقدمة، وكثيراً ما تكون لي مفاجئة.. ولطالما قلت في نفسي: يا الله .. هؤلاء بحثوا المسألة في مطلع التسعينات الهجرية! أي قبل ولادتي أصلاً! أو أقول في نفسي: سبحان الله، هذا المؤلف وقف علىٰ هذه الدقائق ونشر الكتاب بينما كنت في الصف الأول الابتدائي! وقد أَلِفت مثل هذه المقارنات التي تضع المرء في وزنه الطبيعي، وتهز الوعي العاقل الرزين أن لا ينخدع بتعاظم الشبر الأول في طريق العلم..).

أعلم جيدا أن أولَ شيء تداعىٰ في ذهنك أخي القارئ حينما قرأت هذه التجربة اللطيفة استذكارُ مشاعرِ الزَّهوِ المعرفي التي اجتالتك يوما ما وأنت خالٍ وحدكَ تتدبر بإمعان آيةً في كتاب الله فاهتديتَ فيها إلىٰ

معنىٰ تأمُّليٍّ شريفٍ يدلُّ عليه سياق الآية ولا يتعارض مع تفسيرِها، أو توصلتَ إلىٰ علَّةِ حديثٍ بعد أن أنفقتَ في تخريجه والتمعُّنِ في سلسلة إسناده وسماعاتِ رجاله ساعاتٍ طوالا، أو اطمأننتَ إلىٰ حلِّ إشكال متوهَّم بسببِ نصَّين ظاهرهما التعارض، وتتذكر جيدا اغتباطَ قلبك بمشاعر مكتشفي المناجم المطمورة، ثم بعد ذلك بزمنٍ وأنت في مكتبتك تقلِّبُ كتابا من كتبِ أهلِ العلمِ إذا بك تقفُ علىٰ المعنىٰ الذي كنت تظن نفسكَ الأسبقَ إليه، بل تجده مذكورا بصورة أكملَ وبعبارةٍ أجملَ مع التدليلِ عليه ونقضِ ما يعارضه من احتمالات، وكلُّ هذا في كتابٍ وضعه مؤلفُهُ قبلَ وِلادَتِك بأكثرَ من قَرنين! ونظائرُ هذا الموقف وأشباهُهُ لا شكَّ بأنها تكثر في مدارج الطلب كلِّها، **ويفرح به طالبُ العلمِ من جهةِ شعوره أن ذهنه يسير علىٰ الطريق الصحيح ويردُ علىٰ مواردِ أذهانِ العلماء**، وهو من جهةٍ أخرىٰ يُحجِّم «بالون» الزهو الخفيِّ في الأعطاف حتىٰ يكاد يتلاشىٰ في لحظات!

وقد لحظتُ مفارقةً عجيبةً تتوالىٰ أمام عيني شواهدُها يوما بعد يوم، وهي أن أكثرَ الناس لا يكادُ ينفكُّ من تعظيمِ أحدٍ أصلا، فحتَّىٰ أولئك الذين يجرُّون أعطاف الزهو وتطولُ ألسنتهم في الوقيعة في أكابر الأئمة باسم الاستقلال وتساوي الرؤوس، وتسبح خيالاتُ أحدهم في اليقظةِ والمنامِ في توهُّمِ أنَّ منكبَهُ العلميَّ الغضّ يحاذي مناكب الأئمة: الأوزاعي والليث بن سعد ومحمد بن إسماعيل وشعبة بن الحجاج وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل ومن أخذ عن هؤلاء من

أكابر الفقهاء، حتىٰ هؤلاء المسترسلون مع هذه الأخيلة الطريفةِ للغاية تجدُهم في غاية الإجلال والخضوع لمعظَّميهم، بل قد يصل الإفراط في التعظيم عند أحدهم أحيانا إلىٰ درجة الغلو المنهيِّ عنه شرعا، فهذا الشيخ المصري محمد عبده -وهو بحسب رأي الشيخ محمود شاكر قد أحدثَ بمنهجه الجريء علىٰ العلماء أولَ صَدع في تراث الأمة العربية الإسلامية- يقول باسترسال تامٍّ مطريًا شيخَهُ الذي خرج من عباءته جمالَ الدين الأفغاني بأن (**في قوة بيانه ما يشكِّكُ الملائكةُ في معبودهم، والأنبياء في وحيهم!**)[1]، معاذَ الله من جرحِ مشاعر القرَّاء بسَوق هذه العباراتِ الغالية إلىٰ أحداقِهم الوضيئةِ بلا مُوجِب! وإنما الذي دعاني لسوقِها هنا أنني حينما قرأتها؛ قفزت ببالي علىٰ الفور تلك العبارة العَبدِيَّة الموحِشَة الموغِلة في الفَجاجة والتي نقلها عنه تلميذه محمد رشيد رضا التي شتم بها «فقهاء المذاهب الأربعة وغيرهم» فقال عنهم بأنهم (**حرّفوا «كلَّ» نصوص الكتاب والسنَّة، إن اليهود لم تحرف التوراة أكثر مما حرفوا..**)[2]، لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم! هكذا حينما يغيبُ الاتزان النفسي تطول الألسنة حيثما يجب أن تقصر، وتلغ الأقلام حينما يجب أن تتنزَّه! وما أقرب أن يُقال علىٰ وِزان بيت ابن القيم -رحمه الله- في نونيَّته: **هربوا من توقير الأكابر، فبُلوا بتوقير**

(١) انظر هذه العبارات الغالية بخطِّه وتوقيعه مصورةً في كتاب (منهج المدرسة العقلية في التفسير) للدكتور فهد الرومي (١/ ١٥٩).

(٢) منهج المدرسة العقلية للرومي (١/ ٤٢٦).

الأصاغر![1]، وربما كان هذا التوقير المقلوب داخل في قانون المدافعة الإلهية عن أوليائه المؤمنين، وهذه المفارقة في التوقير والاستقلال التي لحَظَها القارئ بجلاء تتضاعفُ عندي شواهدها وتتوالىٰ يوما بعد يوم، فجرتِ العادةُ أن لا يُسرف الإنسانُ في شيء ويمنحه فوقَ قَدْرِه أكانَ شيخا أو اتجاها أو منهجا؛ إلا ووراء إسرافِهِ هذا حقوقٌ مُضاعة!

❊ ❊ ❊

ثمةَ سرابٌ بِقيعةٍ يحسبه الطالبُ ماءً حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئا، ووجد عنده قوارب أوهامه ترتطم علىٰ سفح من الحقائق اليقينية في طريق المعرفة والتعلُّم، فإن أدركت هذا الطالبَ رحمةُ الله فلَطَفَ به وغَفَرَ له سابق ظنونِهِ السَّادرةِ في الغَفلة والدائرةِ في فلكِ الذاتِ، واستجابَ لتمتماته الحرَّىٰ المنبعثةِ من صدره: «يا دليل الحائرين اهدني ..» تفيض بها شفتاه باستسلامٍ تام وهو يرمق أفق السَّماء بعينٍ حاسرة الطَّرف؛ سِيقَت قدماه الناحلتان لتخطو باسمِ الله فوقَ فِجاجِ النور وتَرِدَ منابعَ الهدىٰ بعد أن ذَرعتا بُنيَّاتِ الطريق وجابَتا مفاوز الوَهْم، وإلا ظلَّ أبدًا سابحا في وِديان ذاته الضيقة، يتجلجل بها ما دامت أنفاسه تتردد في صدرٍ مكتنزٍ بتمدّد «الأنا»؛ **والسُّنَّة الماضية أنه حيثما تمدَّدت«الأنا» علىٰ أديمِ قلبٍ بَشَريٍّ انكمشتْ فيه ضَراعةُ الاهتداء والائتساء!**

---

(١) قال ابن القيم في نونيته:

(هربوا من الرق الذي خلقوا له ❊❊❊ فبُلوا برقِّ النفس والشيطان).

تبعية المشي على الأقدام

(حفَّظني أبي ألفَ خُطْبةٍ، ثم قال: تناسَها، فتناسيتها، فو الله ما أردتّ بعدَ ذلك شيئا من الكلام إلا سهُلَ عليَّ وَعْرُه).

خالد القسري (١٢٦هـ)

ذكرتُ مرَّةً أن المعنىٰ الذي يتداعىٰ في ذهني عن بدايات الطلب هو «سذاجة التصورات»، فأكثر التصورات التي تنشأ في ذهن الطالب زمن البدايات جالت فيها يد التعديل عبر رحلته العلمية الطويلة، ولو أخذ يتملَّىٰ الآن تصوراته القديمة حول العلوم والمفاهيم والمسائل، بل رجالات العلم لضحك كثيرا من طرافة المفارقة بين الواقع وهجرة التصورات القديمة، ومن الطريف أن بعض النظرات تستعصي علىٰ التعديلات الجوهرية، ولا يستطيع الطالب أصلا أن يتصور خلافَها حتىٰ بعد أن يشب عن الطوق، كنظرته لشيخه الذي التقاه علىٰ صِغر، فهو لا يملِك أن يقلص المسافة النفسية الشاسعة والنظرة القديمة التي احتلها الشيخ يوم كان الفؤاد خاليا تصفق أبوابُه بالشيخ وحده، وعموما بعض أجزاء هذه المسألة فيه خير كثير!

لا أود أن يرتحل قلمي كثيرا ويشتطَّ عن ما أنا بصدده، فبعد أن عقدت الفصل الماضي عن انتفاخ «بالون» الزَّهو في مراحلِ الطَّلب، فهنا أشير إلىٰ عارضٍ آخرَ ومفهومٍ شائع يقرعُ سمعَ الطالب في أول سنيِّ عكوفه الأول ولا يفارقه حتىٰ حين، فبينما بناؤه العلمي يوشك علىٰ الاكتمال من لبِنَات الشيوخ وسقوفِ المؤلفين إذا بـ جملةٍ تقرع سمعه مرارا؛ ألا وهي: كن مستقلا، حافظ علىٰ طريقتك الخاصة، كن أنت.

ويستعمل بعض الناصحين عباراتٍ مجازية عريضة تصيب الطالب بالهلع من مِثل: ابتلعك وابتلعته، وأكلك وأكلته، وهضمك وهضمته، وتنصهر في بوتقته.. إلىٰ آخر ما تجود به اللغات من أساليب التنفير عن الاقتباس والمشاكلة.

والأوساط الثقافية تروْجُ فيها هذه المفاهيم أكثر منها في الأوساط الشرعية الخالصة، وفي نظري أن قدرا صالحا من مقاصدِ هذه النصائح لو فُهِم علىٰ وجهه لكان مناسبا، لكنَّ كثيرا من الناس يظن الاستقلال والتميز في كل حركة وسكنة أمرا مقصودا في ذاته، وهذا من شأنه أن يحرم الطالب كثيرا من الكنوز التي يمرُّ بها في طريق مناجم الطلب، لكنه يكفُّ يده عنها طمعا في تقدير أكبر قدرٍ من الاستقلال، كما نصحوه مرارا!

لو استطعت أن أصرخ في طبلةِ أذُن أخي الطالب لقلت له: مواطن القوة في كل شيء يجب أن تأخذها وتقتبسها بكل ما تستطيع، وتضمها إلىٰ كنانتك بكل ما تطيق، ومواطن الإعجاب - أخي الطالب - ليس من الاستقلال أن تظهر التبلُّدَ والوقارَ المفرطَ تجاهها!

ليس المستقلُّ أبدًا من يتظاهر أن يوسف عليه السلام ليس جميلا، وأن الشمس التي تملأ الأفق ليست حارقة، وأن السماء الزرقاء ليست مدهشة .. لا.. هذا ليس استقلالا، هذه «حماقة» تلبس أردية الاستقلال البالية!

خذْ واقتبسْ وانبهرْ واندهشْ وقلّدْ وحاكِ وانسجْ علىٰ منوال.. وكل استقلال يأتي بعد هذا فهو محمود.

بعد هذا.. لك أن تخالفَ الغلطَ والخطأ وتبدي اعتراضَك علىٰ مواطن العجلة والضعف ومكامن النقص دون تكلُّفٍ أيضا، لأن بعضَ الناس له مسالك خفيَّة معاكِسَة في سبيل التظاهر بالاستقلال، فينتفع بأحدٍ انتفاعا تاما ثم يتكلف وجوه المفارَقة والاختلاف، فيكون كما قال ابن تيمية عن ابن سبعين بأنَّ **(أصل مادته من كلام صاحب الإرشاد وإن أظهر تنقُّصَه)**[1].

ليتذكر السالك أن أول الإبداع محاكاة، ثم ينفردُ الإنسان بعد حين بزيّه الخاص وطريقته التي جمعت المتفرق في الجميع، وكما قيل بأن «الأسد هو عبارة عن مجموعة من الخِراف المهضومة»، والقماش هو مجموعة من الخيوط المبعثرة، فالإبداع هو تقليدٌ منظِّمٍ لعددٍ من المبدعين، وجمعٌ جادّ لمتفرقٍ في الآخرَين؛ ثم بعدها تكون خلقا آخر.. فتبارك الله أحسن الخالقين!

مرَّةً تحدث الكاتب عبد الله ابن المقفع عن تجربته في الفصاحة في نصّ من أجمل النصوص التي تروي قصة الوصول إلىٰ نمطٍ استقلالي خاصٍ عبر المرور بمحطة استلهام التجارب السابقة، فقال:

---

(١) بغية المرتاد (٤٤٧).

(شربت من الخطب ريًا، ولم أضبط لها رويًا، فغاضتْ ثم فاضتْ، فلا هي هي نظاما، وليست غيرها كلاما)[1].

فالناشئ الذي يبغي التميز ويحلمُ أن يكون له أثرٌ في أيِّ صعيد؛ عليه أن يشربَ «إبداعات» أولئك الكبار الذين سبقوه في مجالِه، ثم يدعها تغيضُ ثم تفيض؛ فلن تكون هيَ هيَ؛ ولن تكون أيضًا غيرها!

وعليه أن يجعل (خاطرَهُ كوادٍ مُطمئِنٍ قد مدّتْهُ سيولٌ جاريةٌ من شِعابٍ مختلفة، أو كمَنْ ركّبَ طيبـًا من أخلاطٍ متغايرةٍ من الطيبِ، فلا يُعرَفُ أرَجُ ما ركّبَهُ من أي طيبٍ هو)[2] كما ذكر المظفر بن الفضل.

قيمة الاستقلال الحقيقي قيمةٌ كبرىٰ يجب أن لا يتخلىٰ عنها الإنسان مهما كان؛ وهي مثارُ إعجابٍ بحقّ حين تُفهم علىٰ وجهها، لكن كثيرا ما يسيء إلىٰ هذا المفهوم الراقي أولئك الذين يشوِّهون معنىٰ الاستقلالِ بتكلُّفِ أوجهِ المغايَرة؛ أولئك الذين يرون الناس يمشون مطمئنين علىٰ أقدامهم، فيبادرون لوضعِ أيديهم علىٰ الأرض فيمشوا علىٰ أربعْ؛ طمعا في تحصيل أكبر قدر من الاستقلال؛ **يُخرجُهم من «تبعية المشي علىٰ الأقدام»!**

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٦١).

(٢) نضرة الإغريض (٣٩٠-٣٩١).

نفوس متضخمة[1]

(١) هذا المقال كُتب بأسلوب ملائمٍ لمضمونه.

إلىٰ صديق ..

أما بعد فإنِّي تصفَّحتُ جملةً من معارفك، وأدرتُ النظرَ في عقلك، وباحثتك في جوفِ الليالي الطِّوال الشاتية، وتخوضنا في علوم الشريعة الشريفة، وتعمَّقنا في بَعْثِ فروعِها الدقيقة، وسبرتُ قدرتك علىٰ فرز الصور المتشابِهة التي يدقُّ التفريق بينها علىٰ كثير من المتفقِّهة، ويعسُر استحضارها علىٰ عامَّةِ الحفَّاظ، فضلا عن امتحانك فيما وراء ذلك من القدرة علىٰ الاستدلال لها، والذودِ عن حياضِها بحلِّ عُقَدِ الإشكالات الغامِضة، ودفعِ الإيرادات المضنية، وفتحِ أبواب المغلقات الملتبِسة، فإذا بك في كل ذلك جَذيلها المحكَّك وعذيقها المرجَّب، وإذا بي حيال رجل أوفىٰ علىٰ الغاية، وشارفَ علىٰ النهاية، وقارب منتهىٰ الكمال، وتسنَّم ذُرىٰ معارف المعقول والمنقول، قد أحبَّ العلم، واصطنع الكتب، واستحكمت مسائل الفقه في قلبِه.

ولكنَّك حين عرفتَ مذهبي في وجوب مطالعةِ كتب الأدب واعتقاد أهميتها أيا كان رسيس التخصص، انقبضتْ نفسك عن الإفصاح، وانجفَلَتْ روحك عن الإبانة، ولزمتَ أعتابَ الصمت مع اعتقاد المخالفة، وتعلَّقْتَ بذيول الكتمان مع انتحالِ الضِّد، مع ما لَكَ من سابقِ اشتغال فيها لم تدرك عميقَ أثرِه وبعيدِ غَورِه، وَخَطَر ببالك أني ما تفطَّنت لمجافاتك رأيي، ولا أدركتُ مجانبتَك أمري، وفاتك

مَنْع الغيومِ من التلبُّدِ في أرجاء جبينك، فما كَتَم الإنسان رأيًا أو انتحل فكرةً إلا تسرَّبت من مسامات جلده، واستبانتْ في احمرارِ وَجْنَتِه، لا سيما إن كان أديم جِلْدِه ضاربًا نحو البياض المشرُبِ بحمرة، فَمِثل هذا إن ترك لسانه محبوسًا يرسُفُ في أغلالِ الصَّمت، وأبقىٰ فاه مغلقًا بحواجز الكتمان، إلا أن عقله منسدلُ الستار، وقلبَه مكشوفُ الأخبار، لا يكاد يخفىٰ علىٰ جليسه شيء من خواطرِه، ولا يعزب عن محادثه فَصٌّ من جواهِرِه، وكما أفضيتُ لك مِرارًا أن الإنسان ابتكر اللغة واستعمل جارحة اللسان للإبانة عن أفكاره، فإذا استعملهُما في سَتر أفكاره؛ أَبتْ عليه سائر الأعضاء، وقامت بمهمته الشريفة التي تخلَّىٰ عنها بمحضِ إرادته، وصار جسمه (زجاجةً تَنِمُّ علىٰ ما تحتويهِ الأضالِعُ).

ثم ما لَبثَ الزمان أَن استدار دورته، وسارت علىٰ الفور عجَلته، فجئتني لاهثًا في يوم صائف، لا ينتهض بصيامِه إلا تقي آثر الآخرة علىٰ الدنيا، لم تحلْ بينك وبين المشي في سبله الملتهبة شدة الرمضاء، ولم يمنعك من الركض في طرقه خلوُّ الأرجاء، وحين أَحْفَظَني طرقك للباب بما يشبه دقّ الجنود والعساكر، وسمعتك تنادي من ورائه؛ أتيتك بمشيٍ وئيدٍ وأنا عازم علىٰ معاتبتك عتابا مريرا، وأن أتلو عليك بعد استرخائك في النديّ آياتِ الاستئذان وما يندرج تحتها من المعاني الجليلة، ثم أقرئك ما ورد من الأحاديث بمتونها وأسانيدها، وأثلِّث بذكر ما ساقه الفقهاء من مسائل وأحكام.

ولكني عدلت عن كل ذلك حين رأيت في وجهك علائم الاغتباط، وانصرفت حين لمحت الابتهاج بانيًا في جبينك حصونا ومعاقل، وتوشك يداك لولا الحياء أن ترفع رايات النصر البيضاء، وبعد تحية عابرةٍ لا معنىٰ لها، وسلامٍ عجلانٍ يقصد به ما وراءه ذكرت لي -جعلت فداك- أن طائفة من الكتاب قد طعن علىٰ كتب الأدب، وشنّ حملة شديدةً علىٰ الناظرين فيها، وزعم أنها تورِث خبالًا في الفكر، وخمولًا في الذهن، ومجافاةً عن طريق البرهان، فأجبتك علىٰ الفور والدهشة تفيض أنهارها من حولي أن هذا الإطلاق في وادٍ والحقيقة العلمية في وادٍ، وأن صِلَةَ هذا الكلام بالحقيقة كصلة اليهود بالوفاء بالعهود، وأبنتُ لك أن الاشتغال بالأدب لم يحلْ بين أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وبين قدرتها علىٰ النظر والاستدلال، وكيف يَنقصها مع ما لها من استدراكات مستفيضة في كتب الفقه علىٰ جملةٍ من الصحابة، وحين أردتُّ الاسترسال بذكر النماذج الكثيرة للعلماء عبر العصور أخذتَ بعضدي، وضغطتَّ علىٰ يدي تسألني النَّصَفة في النقد، والاعتدالَ في الرأي، وتفهُّمَ حُجَّةَ المخالف، لأنك ترىٰ أن ردَّ الأقوال قبل الإحاطة بكُنْهِها جورٌ في الحكم، وانحرافٌ في الرأي، وضربٌ في عَماية.

ثم طفِقتَ تبين لي صلاحَ نية المخالف، وتميُّزَه في جانبٍ من العلم، فأخبرتك أننا لا ننكر فضل ذوي الفضل، ولا نجحدُ أحدًا فيما فتح الله عليه، بل نحبُّ لسائر إخواننا أن لا يرتشفوا إلا من أنهار

الصواب، وأن لا يسبحوا إلا في شطآن الحق، ولكنك تعلم أن صلاح النية يؤجر عليه الإنسان لكنه ليس ضمانًا لإصابة الحق في نفس الأمر، وأن التميز في جانب من العلم يحمد عليه المرء لكنه ليس عاصمًا من الانزلاق في هُوَّة الخطأ في جانب تميزه، فكيف بجوانب أخرىٰ.

وجذبتُ يدي عن يدك، وأعدتُّ لك ما ذكرتُه من كون الأدب المحمود يؤثر في معرفة البيان العالي، وفي القدرة علىٰ سَبك الحجج ونظم عقد الأفكار، ولذلك تجد بعض أعلام التراث لم يمتازوا إلا بحسن الترتيب وجودةِ التبويب وحسنِ الاقتدار علىٰ ترتيب المآخذ، دون إضافة فكرية كبيرة، ومع ذلك كان لهم بالغُ الأثر في مدِّ رُواق المنهج الذي ينتسبون إليه، وأعظمُ التأثير في نشر مذاهبهم وأفكارهم عبر الأقطار، ولا يحجِزني عن الاسترسال إلىٰ سردِ الأمثلة إلا كثرتُها، ولا يمنعني من تقصِّيها إلا وفرتُها، وما كنت أظن أنه يغشىٰ الناس زمانٌ يُحتاج فيه إلىٰ الاستدلال علىٰ أهمية مطالعة كتب الأدب، فضلا عن أن يقال إنها تورث الذهن بلادة وخبالًا، فهذا يصدق علىٰ متعاطي منطق اليونان، فهو الفن الأقرب إلىٰ إفساد الفكر واللسان، لا سيما إن كان صاحبه معظِّمًا له، مضيِّقا للوصول إلىٰ النتائج الصحيحة إلا من طريقه، وأما حكم دراسة المنطق فلنا فيه قول معتدل ليس هذا مقامه.

فلما رأيتَني مُصِرًّا علىٰ مخالفتك، مَتَنكِّبًا صراطَك، عادِلًا عن مَهْيَعِك، ألقيت عليَّ نظرةَ يائِسٍ من حصول مقصودِه، متألمٍ من فوات

مطلوبِه، وسألتني بصوتٍ خفيضٍ أَخَذَ الحزنُ بأكظامِه: هل ترىٰ مطلق الاشتغال بالأدب بالنسبة لطالب العلم؟

وحين لم أكن أعلم منك محبةَ إعناتي بالسؤال، وإثقالي بطول المناظرةِ، مع ما بيننا من صدق المودَّة، وكَرَمِ العِشرة، وسابقِ الإحسان؛ أجبتك علىٰ الفور بأن مذهبي يعرفه خواص جلسائي، ولولا ما فيك من مجانبةٍ فطرية، لكنت من أعرف الناس به، وأغناهم عن السؤال عنه، فمذهبي هو الاعتدال في دراسة الأدب بما يحصِّل به المرء معرفة السياقات اللغوية ومعهودَ العرب في الخطاب، ولا يكون ذلك إلا بحفظ الوحي، وإدامةِ النظر فيه، مع مطالعةِ الشعر القديم علىٰ وجه الخصوص، وأما الاتكاء علىٰ المعاجم اللغوية فيفيد في درك المفردات المنبتَّة من سياقها، وهي فائدة ضئيلة.

وأخبرتك أنه ليس من مذهبي الدعوة إلىٰ الإيغال في الأدب علىٰ حساب التضلع من العلوم الشرعية كما هي طريقة بعض من توغل وأمعن فغفل عن المقاصد، فصار في غاية أمره ومنتهىٰ شأنه أديبا متفقها، وكان في أول أمره فقيها متأدبا.

وليس متضمن مذهبي أيضًا الدعوة إلىٰ خلط البراهين العقلية الدقيقة بالعبارات الأدبية الفضفاضة، فإذا غلب الأسلوب الأدبي علىٰ بيان وجه الحجة ومنزع الاستدلال ومأخذ الدليل أفسد العلم.

وليس لازم مذهبي ما يطرقه بعض المتأدبة من الإيغال في السير الذاتية لكثير من أعلام الأدب، ولا ما يسلكونه من طول التتبع للتفاصيل المفضولة التي يضيع بها الزمان الطويل، فطالب العلم الشرعي لا تعنيه الحياة الخاصة لشاعرٍ مَدَّاحٍ صرف زمانه في البحث عن مطامعه ومطامحه، ولا معرفة شخوص رواية أدبية كتبها سكِّير، بيده قلم يرتعش وبالأخرىٰ كأس منثلم العُرىٰ، وإنما هو يقرأ الأدب ليبري قلمه الذي يخط به رسالته.

وليس كلُّ هذا غاية ما لدي من مؤاخذات علىٰ مطالعة كتب الأدب، بل في نفسي من هذه المطالعة شيءٌ أعمق قَلَّما يُتَفَطَّنُ له، وأمرٌ أخطر نادرًا ما يُشار إليه، ومنزع أخفىٰ من أن يحاط به في هذه العجالة، لا سيما وقد رأيتك تستوفز للقيام، وتوشك علىٰ الانصراف، فلعلي أذكر لك منه طرفا صالحا، تستدل به علىٰ ما وراءه، وتقيس ما ذكر علىٰ ما لم يذكر، وكما قيل: **لا ينتفع بنفسه من لا ينتفع بظنه.**

وهو أن كتابات كثير من الأدباء والشعراء تضيّق المزاج الفسيح، وتنسج خيوط العزلة، وتخيط ثياب الاغتراب، فنفوسهم كثيرة التطلع، مرهفة الشعور، عميقة الإحساس، قد سكن التألم في جميع نواحيها، ودق الوجع خيامه في سائر ربوعها، ولو وُضِعَ بعضُ ما في كتب الأدب من كآبة حالكة وتعاظُمٍ فارغٍ في ماء البحر لمزَجه.

وما قلتُ ذلك -أبقاك الله- ولا انتحلتُه إلا ومعي شواهد قاطعة وبراهين ساطعة، فلستَ تقرأ شَتمَ الزمان وأهلَه في علم من العلوم إلا

في كتب الأدب، ولست تجده بهذه الغزارة والاتساع إلا في دواوين الشعراء، حتىٰ قال بعض الشعراء محسِّنا الظن بسائر الأجناس الأرضية باستثناء جنس الآدميين:

تحفظ من ثيابك ثم صنها وإلا سوف تلبسها حدادا
وظنَّ بسائر الأجناس خيرا وأما جنس آدم فالبعادا[1]

وقال آخر داعيا إلىٰ أخذ عهود السلامة من مواضع الثِّقة ومحالّ الأمان:

لو قيل لي: خذ أمانًا من أعظم الحدثان
لما أخذت أمانًا إلا من الإخوانِ[2]

ويقول كبير الشعراء علىٰ الإطلاق ومقدَّمهم في أكثر الآفاق بأن من عرف الأيام كمعرفته وأحاط بالناس كإحاطته (**روَّىٰ رمحه غيرَ راحم**)، وبأنه يشك في أصفيائه فضلا عن أعدائه لعلمه أنهم (**بعضُ الأنامِ**).

ولستَ تقرأ فرط الإعجاب يسيل سيلانًا كأنه نهر دجلة إلا في هذه الصحائف الأدبية، حتىٰ قال المتنبي وهو باكٍ يرثي جدته بأنه يكفيها فخرا **كونها جدَّتَه!** فانظر كيف ساقَه فرطُ الإعجاب إلىٰ التعاظم في موضع لا يحسن فيه ذلك البتَّه، وأما شتم الزمان والحط علىٰ أهله

(١) نفح الطيب، المقري (٣: ٢٩٠).
(٢) ديوان الصولي (١٦٦).

والإزراء بعقولهم والطعن في أغراضهم فكثير جدا في أشعارهم، لا يكاد يخلو منه ديوان، ولا تخفىٰ عليك مواضِعُه، ولا تندُّ عن بصرك مواقِعُه.

وكنت فيما سَلَفَ أُشفقُ عليك من مخالطةِ عامَّة الحمقىٰ في زمانك، وأحذِّرك من مجالسة جملة النوكىٰ في أيامك، لئلا يتسرَّب إلىٰ ذهنك شيء من عقولهم، أو يختلج في نفسك قدرٌ من أنظارهم، مع ركاكة منطقهم وهَلْهَلَة لغتهم، فكيف بالأثر النفسي البالغ لهذا الشعر الذي يبلغ الغاية في الحسن، والمنتهىٰ في الجمال؟!

ولعلي أخبرك بأمر لا يخطر ببالك، ولا يسبق إليه وهمك، وربما فزعت إلىٰ تكذيبه أول سماعه، وأعرضت عن قبوله وانتحاله، لكني أدعوك إلىٰ تسريحه في زاوية الإمكان والتأمل، وهو أنك تجانب الصواب بقدر اعتقادك أن عامة هؤلاء الموهوبين من الشعراء والأدباء صادقون في معاناتهم، دقيقون في شرح أحوالهم، أو أنها سُكِبَتْ فوق ظهورهم البريئة قلال الظلم والقهر من بين سائر الخلائق، ولكن عامتهم أقوام يسلكون هذا الطريق اختيارا، لعلمهم أن روح الأدب التي تتنفس منها رئتاه الانفعال والمبالغة والتألّم، فالقلم أشرق ما يكون في نفوس الأدباء إذا اكفهرَّت ضِفاف نفوسهم، حتىٰ ليُخَيَّل إلي أحيانا أن الكتابة الأدبية ليست إلا كآبة خرَّ عمودها علىٰ السطر من فرط الشجن.

من الأدباء والشعراء حين أدرك ذلك طفق يرعىٰ همومه وجراحه كما يرعىٰ المزارع بذورَه، وكما يربي الرجل فُلُوَّه، وكلما أَوشَكَ جرحٌ علىٰ الالتئام سَكَبَ عليه قِلال الذكريات الحزينة ليظلَّ راعفا علىٰ الدوام، ولعلمه أن الحزن من بواعث الكتابة، فإذا كان في الناس من يقرأ الأدب ليسلو ويجاوِز الهمَّ، فهذا المسكين الموهوب يحرس الهمّ ليكتب الأدب.

فالأديب -رحمك الله- كثيرا ما يكون رشيقَ الحرف، متضخِّمَ الذَّات، عابسَ النفس، غيرَ مُحتمِلٍ لأهلِ زمانه، كثيرَ الوقيعة فيهم، وغير ذلك من المعاني الطافِحة في كتب الأدب والشعر، ومن أطالَ المكث بين الأدباء، وتشبَّع بهذه الأغراض، واستوطنتْ شِغاف قلبه؛ صَعُبَ عليه تلافيها، ولا يمكن أن يؤثِّرَ في الناس تأثيرًا بالِغًا بالإصلاح والتعليم والتوجيه والتربية؛ لأن عِمادَ النُّصح الاحتمال، وأساسَ التأثير الشّفقة، ومستندَ الإصلاح الصبر، ووسيلةَ المخالطة هضم الذات، وإنما سيظلُّ حياتَه يدور في حلقة مفرغة من المعاني الحالِكَةِ السَّواد، وقد رأيت مرةً غارقا في كتب الأدب يقول -بعد انفضاض الناس عنه-: الحقُّ لم يبقِ لي أحدًا! فكدتُّ أهمس: وسوءُ الأدب أيضا، إلا أني خشيت أن أحفِّزَ فيه سوءَ الأدب الذي يسمِّيه حقًّا!

وحين بلغتُ هذا الموضع رأيتك تتنفس الصعداء، وتسكِّن نفسك من عناء الرأي المخالف، وذلك لاسترسالي بذكرِ هذه المعاني الموافِقة لهواك، ولتوهِّمكَ عدولي عن رأيي السالف، وجنوحي عن

قولي الأول، ولذلك أحب أن أمحضك النصح، وألخص لك القول: خذ بحظِّك من الأدب واملأ وِطابِكَ منه، وتحفَّظ منه قدرًا صالحا، مع تثميرِه علىٰ مَرِّ الزمان، فإنه أكبر معينٍ علىٰ حسن الإبانة، لا سيَّما في أوقات الفترات التي يثقل معها مطالعة دقائق الفقه، فإن القلب -كما يقال: **إذا أُكْرِهَ عمي**. ولكن ليكن في ذهنك أنك ستأخذ من هؤلاء الأدباء رَشاقةَ الحرف، وسلاسَة اللغة، وحُسن التعبير، ورَوعة التركيب، وألقِ نفوسَهم المتضخِّمة وراء ظهرك.

خلاصات منتخبة

- السؤال عن نسيان المعارف يُطرح في مدارج الطلب عادةً علىٰ شِقَّين: سؤال عن شرود المعرفة، وسؤال عن كمونها وعدم القدرة علىٰ استثمارها مع وجودها.
- حين تمتلك الأرضية العلمية لعلمٍ ما تستطيع أن تبني فوقها بنيانا من المعارف بيسر وسهولة.
- المعارف بطبيعتها سريعة التناسل كثيرة التوالد، ولكنها لا تتخلق خارج جدار الرحم.
- بعض العوام يستقر في ذهنه من المعلومات في شؤون شتىٰ أكثر عددا مما هو في ذهن بعض طلاب العلم، وإنما تباينت الاهتمامات فحسب.
- من وسائل ضبط العلم المشهورة عند العلماء وسيلة الاختصار والتلخيص، والعلامة الذهبي كان شديد الحفاوة بها في أثناء طلبه للعلم.
- من مقاصد الاختصار حذف الحشو والزائد والمكرر ليسهل ضبط أصول الكتاب.
- الفوارق بين الناس فيما يتعلق بضبط المعرفة تتعلق غالبا بمدىٰ تهيئة الأرضية العلمية وليست متعلقة فقط بالفوارق

العقلية، فعلىٰ طالب العلم أن يجتهد في فتح الخزانة قبل جمع الثروة.

- لا يُتصور أن يوجد عالم لم يتكئ علىٰ محفوظٍ يتأمله وينفق منه متىٰ شاء، كما أنه لا يُتصور وجود علمٍ ليس فيه ما يُحفظ.
- المفارقة الحادة تظهر حينما ترىٰ اثنين يشتركان في قدر المحفوظ لكنهما يتفاوتان تفاوتا هائلا في إمكانيات التوظيف ومدىٰ الاستحضار للمعارف الكامنة.
- من التمييزات التي يذكرها بعض العلماء في كتب التراجم، التمييز بين الحافظ والمستحضر، والحافظ ابن حجر كان في تراجمه حفيا بالإشارة إلىٰ ملكة استحضار العالم معارفَه الكامنة.
- ليست غزارة الحفظ مرتبطة بقوة الاستحضار، فربما وجدت عالمين: أحدَهما أحفظ من الآخر، والآخر أكثر استحضارا، ومن مثالات ذلك ما أورده ابن حجر عن الهيثمي والعراقي.
- من الأوهام الشائعة ربط قوة الاستحضار بعمق الفهم، وجعله فرعا عنه، وهذا المعنىٰ غير صحيح بهذا الإطلاق، فابن حجر وصف عالما بسعة المحفوظ وجودة الذهن لكنه ضعيف الاستحضار.
- العلم الإنساني بطبعه يحضر ويغيب، فليس هو لازما لزوم الألوان للمتلونات.

- الاستنباط قدر زائد علىٰ الاستحضار، فهو استحضار مركَّب من استحضار الدليل والدلالة.
- العلم لا يمكن أن يكون ثمرةَ خصلة واحدة كالفهم أو الحفظ أو الاستحضار، لكن تغلب في بعض المواقف خصلة علىٰ أخرىٰ.
- مساءلة المادة المدخلة، وتفعيل النظرة الشاملة هما قطبا رحىٰ الاستحضار للمعارف.
- القراءة بلا تأمل ولا تفكر ولا إعمال للذهن، هي مجرد إرهاق للعينين وعظامِ الرقبة.
- المعلومات التي يختزنها طالب العلم هي مواد مصمتة (خام)، ودوام بقائها بهذه الصورة يعرقل القدرة التامة علىٰ استثمارها.
- المحصَّل من تقنية المساءَلة الدائمة شحذ الذهن ونفض الغبار الذي يسرع في التراكم فوق رفوف المعارف.
- ثمة تحفز عقلي يجده طالب العلم زمن المدارسة العلمية، وهناك توثّب روحي يشعر به لحظةَ تناظره بين الأقران بالمعارف، وهذا التوثب هو خير معين لتنمية ملكة استحضار المعارف الكامنة.
- معارف ابن تيمية لم تكن حبيسة فؤاد ساكن، أو أسيرة مكتبة معزولة، أو مرتبطة بدرس أسبوعي محكوم الفقرات

والسؤالات، وإنما مذْ طرَّ شاربُ الفتىٰ الحرَّاني إلىٰ أن وخَطَه الشَّيبُ شيخا للإسلام ومعارفُه تتعرض لمعاول الاستخراج الدائمة والمباحثة المستمرَّة.

- كثرة الممارسة للعلم بأي صورة كانت؛ هي أساس ملكة استحضار المعارف الكامنة.
- من طرائق تقليب المادة العلمية علىٰ وجوه مختلفة؛ حفظ الأدلة ضمن سياقاتها التداولية، كحفظ أحاديث الأحكام ضمن السياقات الفقهية.
- العلماء منذ القرون الأولىٰ لديهم عناية بقضية استحضار المعارف الكامنة ويفتنُّون في تقليب المادة العلمية علىٰ وجوه مختلفة.
- من نعم الله علىٰ الطالبين أن جعل في كل حقل معرفي قواعد جامعة تطوِّق أطرافه وتلم شعثه.
- الضوابط والقواعد لا تقتصر مطلقا علىٰ ما يسمية العلماء قواعد كالقواعد الفقهية وقواعد الصفات، وإنما لا تنتثر حبات الفروع في أي حقل إلا من خيط قاعدة كلية.
- النظرة الكلية المطلوب تفعيلها لا تقتصر علىٰ مجال العلوم الشرعية، فحتىٰ الأطروحات الفكرية والشخصيات والكتب من الممكن أن توضع أصولها وروافدها ومحركاتها الداخلية في بضعة أسطر.

- أشار ابن القيم إلىٰ أن تحصيل النظرة الكلية يعين علىٰ معرفةِ حتىٰ الجزئيات التي لم يطالعها الناظر.
- فكرة التقليل من المحفوظ العلمي ليسهل استثماره ليست فكرةً حديثة كما يُتوَهَّم وإنما أشار إليها بعض المتقدمون من أهل العلم.
- ملكة استحضار المعارف الكامنة هي رونق العلم وأبَّهة العالم، وطالب العلم إنما تعلّم وعانىٰ ليعرف الجوابَ حال الحاجة إليه، فإذا لم يستحضر الدليل أو لم يتذكر المعلومة التي بين جنبيه؛ فاتتْ عليه الثمرة التي كان يرتجيها.
- الإشارةُ إلىٰ اتحادِ النَّبعِ مع اختلافِ الأُكل معنىٰ ثابتٌ في الوحي، وهو مستقرٌ في بدائِهِ العقول ومتناثرٌ في كلامِ أهل العلم.
- لو رأىٰ الأئمة والعلماء الذين تركوا خلفهم تراثا هائلا ما انهمك فيه المُلَحيُّون من نِتاجهم؛ لارتفعتْ حواجبُ دهشتهم، فهم كمن بنىٰ قصرا مشيدا لقوم، فوجدهم قد افترشوا عتبةَ بابِه.
- خلق اللهُ الناس متباينين في قدراتهم فجعل منهم الحفيَّ بأصول العلمِ، بينما فطَرَ آخرين علىٰ الولع بالملح.
- من المعارف ما هي أصول علمٍ ما، بينما هي مُلَحُ علم آخر، كبعضِ المعلومات التاريخيةً: هي أساس بنيان المؤرخ

وصلب معرفته، بينما تنزل من المتن لتحل في الهامش بالنسبة للفقيه.

- ثمة ظاهرة متنامية تلفت الانتباه وهي انصرافُ كثيرٍ من طلاب العلم الأصيلِ عن صُلْبِ معارفِهِم وأساسِ بنائهم علىٰ حساب مسائلَ مفضولة.
- كلَّما حلَّت مناسبة علمية كمعرض الكتاب طفحَ إلىٰ السطح الثقافي سَدَنة الارتخاء، ووجهوا بوصلة الشراء نحو قِبلة الارتخاء المعرفي، وكم تَنْفُق بسببهم بضاعة الروايات والتراجم والسير الذاتيَّة.
- نحن في زمنٍ أمست فيه شبكاتُ التواصل تكيِّف طرائق التلقي والتأصيل، وتفرضُ ذوقها الخاص بها.
- ليست المشكلةُ في مجرّدِ قراءة الروايات لتحصيل مقاصد معينة فإذا بقيت هذه الأقاصيص في حدها اللائق بها ضاقت مآخذ الإشكال فيها.
- الذِّهن الإنساني بطبيعته يتكيف ويعتاد ما حُمِل عليه، فإنه إذا أَلِفَ ثقيل العلم وأصوله؛ سهُل عليه ما سواه.
- من صور الـمُلَح المقنَّعة الإغراقُ في المفاضلة بين المحققين ودورِ النشر والانهماكُ في تتبع الطبعات.
- الملح ما لم تنتظم وتتسق داخل منظومة معرفية متكاملة، فهي أقرب ما تكون إلىٰ قصاصات ورقية متناثرة، والتأصيل

هو الذي يلمُّ شتات هذه القصاصات ويصنع منها دفترا متماسكا.

- المعارف تتفاضل فمِنها دور للسكنىٰ ومنها حدائق للنزهة، والعاقل من يبني الدار قبل رصْفِ البساتين.
- ثمَّةَ حواجزُ صَدّ خفيِّة تحول بيننا وبين الصعود إلىٰ قِمَمِ المعاني الراقية التي جاء بتفصيلها القرآن، وما زالَ كثيرٌ من أولئك الذين يتوهَّمون أنهم صعدوا إلىٰ القمة السماوية متاخمين لسفوح القناعات الأرضية.
- أكثرُ ما يحاذره المدافعون عن المحكمات هي تلك القناعات المبايِنة مبايَنةً كليةً لمضامين الوحي بينما نغفلُ كثيرا عن عمليات الشطب اليسيرة.
- التشغيب والتشويش علىٰ بعض المعاني الشرعية واتخاذها سخريا، قادت بعض أهل العلم وحملة القرآن إلىٰ شيءٍ من الركونِ إلىٰ تخفيض كمية الدلالة لمعاني الوحي العظيمة و «الإخلاد إلىٰ الطريقة الأمية».
- كثيرا ما ينسىٰ المدافع عن المحكمات طبيعةَ عمله، ويذهل عن حقيقة كونه مجرد «ساعي بريد» لرسالةٍ لم يكتبها، فيُمسي «سمسارا» يخفض ويزيد في السلعة وثمنِها ملتمسا رضا الزبائن.

- الخسارة الكبرىٰ من سلوكِ الطرق المعوجَّة في الرد علىٰ الباطل هو ما تعلّق بيقيننا وإيمانا بكمال الرسالة الإلهية، وما نَتجَ عن الضَّغْطِ الرَّهيب حال استحضار تشويش الخصم من ضمورِ المعاني القرآنية الشريفة في القلب.
- طالبُ الحق الذي يبني تصوراته ابتداءً علىٰ أنقاض الأطروحات المتصادمة إنما يبني بناءً مشوَّها مهددا بالانهيار، لذا يحَذِّر بعضُ العلماء من التأسيس ابتداءً علىٰ كتب الردود ولو كانت ردودَ أهل السنَّة علىٰ المبتدعة، فحينما يُخصَفُ ثوبُ التصورات الأولية من قماش تجاذبته الأيدي فلا تسل عن الخروق في وسَطِه وعلىٰ أطرافِه.
- كان صبيغُ بن عسل لافتا علىٰ الساحة الثقافية في القرن الأول، وكان يلقي أحجارا في مياه راكدة، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُعيد الركود بالدرّة لتلك المياه التي حركها صبيغ.
- معيارَ الإثارة يجب أن يتنحَّىٰ بعيدا عن ورقة التقويم الشرعي للأطروحات، وأن يظلَّ في منأىٰ عن الإشادة به مجردا عن عاملِ إصابةِ الحق.
- اليقين الشرعي يُحصَّل من تظاهر الأدلّة وتعاضد الحجج لا مِن ملاحقة المعارضات الخارجية ونقضِها.

- الفارق العلمي بين الناس من أسباب الخلاف، لكن ما أكثر ما يُذكر دون التغلغل إلىٰ معانيه.
- مِنْ عمق فِقه العالِم أن يستحضرَ أن الإشكالَ القائم؛ ليس أحقَّ بالنظر من الإشَكال المستوفزِ للقيام.
- من نظرَ في تصرفات المحققين من أهل العلم وجَدهم لا يتوقَّفون عند سطحِ المقالات وإنما يتغلغلون لملامسة جذورها، ويتتبعون ظروف ولادتها الغامضة، ويكون الحكمُ متوجها للقول وظروف ولادته جميعا.
- أكثر الغلط بين أهل العلم في تقويم الأطروحات الجديدة هو بسبب فقه يفتقر للعمقِ أو الشُّمول.
- من صنيع السلف أنهم كلما اشتبهت مقالة معينة رفعوا بعضَ ما يترتب عليها من أحكام.
- أشياء كثيرة تجعل الناس يقولون خلاف الحقيقة غير تعمد الغلط، ومن أدرك هذه الطبيعة البشرية؛ هان عليه بناء جدار سامقٍ يفصل بين صلاحهم وآرائهم.
- لا يجوز أن تضيع الحقائق العلمية باسم الحفاظ علىٰ مكانة الرجال! فالأمانة التي ترثها الأجيال القادمة منا هي الحقائق العلمية وليست جَثَامين حملتِها!
- من عادةِ كلُّ من يردّ، أن يكتبَ أوَّل ردِّه: (ليس من عادتي أن أردّ!).

- من طبيعة النفوس حينما تهدر طاقتها في معركةٍ صغيرة أن تنفخ بالونِ هذا العراك الصغير ببعض الأدلة الشرعية وتطوقه بشيء من العبارات المنطقيَّة.
- العلاقة مع الناس عموما غزيرةٌ بالمفاجآت غير المحتسبة، وهي مليئةٌ بالتعرجات والمنحدرات الكثيرة.
- حين ينتقلُ الذنبُ من كونه نتيجةً تُفعل تحت ضغط الشهوة العارِمة إلىٰ عادةٍ تُقضىٰ بها أوقات الفراغ؛ فالمعركةُ مع الشيطان في هذه المرحلة الحرجة ليست متكافئة مطلقا.
- يزين الشيطان المعصية للتقي أكثر من تزيينها للفاجر، فما عُهِدَ أن الصياد يطعم السمكة وهي في الشَّبَكة.
- ينتصرُ السائر علىٰ خصمه اللدود حينما يبرح الأرض التي يحسن الخصمُ اللدود المنازلةَ فيها، ويغيِّر مسارَ المعركة، وينتقل لتسييج الحصن بدل الانهماك في مطاردة اللصوص.
- أدركَ أبو حامدٍ الغزالي أهدىٰ الخياراتِ الأربعةِ التي افترضها، وإن فاتَه خيارٌ أهدىٰ منها سَبيلا وأقومُ قِيلا، إذْ مِن عادةِ المسافِرِ الضَّاربِ في الأرضِ أن تفوتَه معالمُ كثيرةٌ في غايةِ الوضوح إذا لم يستَجْلِها بطَرْفِه.
- يشتد بعض المهتدين إلىٰ أنوار الحق في مبايِنَة أهل طريقته قبل الهداية، وذلك لمعرفته حقائق أقوالهم.

- أغلبُ السَّالكين الذين تنقطع أنفاس إصرارِهم ويرتخي حبلُ العزيمة في أيديهم، إنما استسلموا خلالَ منطقةِ الابتلاءِ الأولىٰ.

- تـوارد غلاةُ الصوفية فقد تـواردوا علىٰ معنىٰ إبطاء وقت البوارق، وشحنوا به رسائلَهم وأشعارهم ومواجيدَهم، لكنَّهم حمَّلوه دلالاتٍ هائلةً غيرِ شرعية.

- ثمةَ مرحلةً حتميةً تَلي عزيمةَ السير إلىٰ الله، وتَسبق بوارقَ التأييدِ الرَّحمانيَّة؛ هذه المرحلة مفازةٌ تُقطع براحلتي الصَّبرِ والالتِجاء، وفي هذه المفازةِ ضلَّتْ طريقَها أكثرُ الرواحِل.

- الإيغال المفرطِ في الحديث عن العوائق الخارجية في طلب العلم، ربما شغل عن الحديث عن العوائق الداخلية وهي أشد فتكا.

- بالون الزهو أمرٌ معتاد يصحب مراحلَ الطلبِ كلِّها، ويُحسِنُ تجفيفَ منابعِه وتقليصَ مناطِقِ نفوذِه علىٰ الفورِ الموفَّقون في طريق الطَّلَب.

- جرت العادةُ أن تكثر الكتابة والتآليف في المستدركات والمآخذ العلمية في أوائل الطلب.

- أكثر ما يغرُّ السالك في دروب المعرفة المتطاولة ويبعث في نفسه الفتورَ في مسالكها الممتدة هو هذه الاستنامة لتقويمات الجهَّال، ولا شيءَ أصلحَ له من الاعتبارِ بحال الأكابر.

- يفرح طالبُ العلمِ حين يكتشف أن عالما سبقه إلىٰ تحقيق علمي ما.. من جهةٍ شعوره أن ذهنه يسير علىٰ الطريق الصحيح ويردُ علىٰ مواردِ أذهانِ العلماء، وهو من جهةٍ أخرىٰ يُحجِّم «بالون» الزهو الخفيِّ في الأعطاف حتىٰ يكاد يتلاشىٰ في لحظات!
- أكثر الناس لا يكادُ ينفكُّ من تعظيمِ أحدٍ، فحتَّىٰ أولئك الذين يجرُّون أعطاف الزهو وتطولُ ألسِنتهم في الوقيعة في أكابر الأئمة باسم الاستقلال وتساوي الرؤوس، تجدُهم في غاية الإجلال والخضوع لمعظَّميهم.
- السُّنَّة الماضية أنه حيثما تمدَّدت «الأنا» علىٰ أديِم قلبٍ بَشَريٍّ انكمشتْ فيه ضَراعةُ الاهتداء والائتساء.
- أكثر التصورات التي تنشأ في ذهن الطالب زمن البدايات جالتْ فيها يدُ التعديل عبر رحلته العلمية الطويلة.
- الأوساط الثقافية تروْجُ فيها هذه مفاهيم الاستقلال المغلوط أكثر منها في الأوساط الشرعية الخالصة.
- كثير من الناس يظن الاستقلال والتميز في كل حركة وسكنة أمرا مقصودا في ذاته، فيشوه مفهوم الاستقلال الجميل بتكلفه أوجه المغايرة.
- ليس من الاستقلال إظهارُ التبلُّد والوقارِ المفرط تجاه مواطنِ التميز، ليس المستقلّ من يتظاهر أن يوسف عليه

السلام ليس جميلا، وأن الشمس التي تملأ الأفق ليست حارقة، وأن السماء الزرقاء ليست مدهشة .. لا .. هذا ليس استقلالا، هذه «حماقةٌ» تَلبَس أَردِية الاستقلال البالية.

- بعضَ الناس له مسالك خفيَّة معاكِسَة في سبيل التظاهر بالاستقلال، فينتفع بأحدٍ انتفاعا تاما ثم يتكلف وجوه المفارَقة والاختلاف.

- ليتذكر السالك أن أول الإبداع محاكاة، ثم ينفردُ الإنسان بعد حين بزيّه الخاص وطريقته التي جمعت المتفرق في الجميع، فهو تقليدٌ منظِّم لعددٍ من المبدعين، وجمعٌ جادّ لمتفرقٍ في الآخرَين؛ ثم بعدها تكون خلقا آخر .. فتبارك الله أحسن الخالقين.

- الأديب كثيرا ما يكون رشيقَ الحرف، متضخِّمَ الذَّات، عابسَ النفس، غيرَ مُحتمِلٍ لأهلِ زمانه، كثيرَ الوقيعة فيهم، وغير ذلك من المعاني الطافِحة في كتب الأدب والشعر، ومن أطالَ المكث بين الأدباء، وتشبَّع بهذه الأغراض، واستوطنتْ شِغاف قلبه؛ صَعُبَ عليه تلافيها، ولا يمكن أن يؤثِّرَ في الناس تأثيرًا بالِغًا بالإصلاح والتعليم والتوجيه والتربية؛ لأن عِمادَ النُّصح الاحتمال، وأساسَ التأثير الشّفقة، ومستندَ الإصلاح الصبر، ووسيلةَ المخالطة هضم الذات.

- خذ بحظِّك من الأدب واملأ وِطابكَ منه، وتحفَّظ منه قدرًا صالحا، مع تثميرِه علىٰ مَرِّ الزمان، فإنه أكبر معينٍ علىٰ حسن الإبانة، لا سيَّما في أوقات الفترات التي يثقل معها مطالعة دقائقِ الفقه، فإنَّ القلب -كما يقال: إذا أُكْرِهَ عمي. ولكن ليكن في ذِهنك أنك ستأخذ من هؤلاء الأدباء رَشاقةَ الحرف، وسلاسَة اللغة، وحُسن التعبير، ورَوعة التركيب، وألقِ نفوسَهم المتضخِّمة وراء ظهرك.

جريدة المصادر

١. أدب الكتاب، الصولي، نشر المكتبة العربية (١٣٤١هـ).
٢. الأربعين في أصول الدين، الغزالي، المنهاج، الطبعة الثانية (١٤٣٢هـ).
٣. الاستقامة، ابن تيمية، جامعة الإمام، الطبعة الثانية (١٤١١هـ).
٤. أسرار البلاغة، الجرجاني، ت محمود شاكر، دار المدني، الطبعة الأولىٰ (١٤١٢هـ).
٥. الأشباه والنظائر، ابن نجيم، دار الفكر، تصوير عن الطبعة الأولىٰ (١٤٠٣هـ).
٦. الاعتصام، الشاطبي، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية (١٤٣١هـ).
٧. أعيان العصر وأعوان النصر، الصفدي، دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولىٰ (١٤١٨هـ).
٨. إنباء الغُمر، ابن حجر، لجنة إحياء التراث (١٤١٥هـ).
٩. الأنوار الكاشفة، المعلمي، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولىٰ (١٤٣٤هـ).
١٠. بغية المرتاد، ابن تيمية، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثالثة (١٤٢٢هـ).

١١. بغية الوعاة، السيوطي، المكتبة العصرية، لبنان.

١٢. بيان الدليل، ابن تيمية، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولىٰ (١٤٢٥هـ).

١٣. بيان تلبيس الجهمية، ابن تيمية، مجمع الملك فهد، الطبعة الأولىٰ (١٤٢٦هـ).

١٤. التحرير والتنوير، ابن عاشور، الدار التونسية (١٩٨٤م).

١٥. تعريف ذوي العلا، الفاسي، دار صادر، الطبعة الأولىٰ (١٩٩٨م).

١٦. تعليم المتعلم، الزرنوجي، الدار السودانية للكتب، الطبعة الأولىٰ (١٤٢٥هـ).

١٧. التلخيص في أصول الفقه، الجويني، دار البشائر، بيروت.

١٨. تهافت الفلاسفة، الغزالي، دار المعارف، الطبعة التاسعة.

١٩. تيسير الكريم الرحمن، السعدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ (١٤٢٠هـ).

٢٠. جامع المسائل، المجموعة الأولىٰ، ابن تيمية، دار عالم الفوائد، الطبعة الثانية (١٤٢٧هـ).

٢١. جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، ابن الجوزي، الطبعة الثانية (١٤٢٧هـ).

٢٢. جامع بيان العلم، ابن عبد البر، مؤسسة الريان، الطبعة الأولىٰ (١٤٢٤هـ).

٢٣. جواب الاعتراضات المصرية، ابن تيمية، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولىٰ.

٢٤. الحلم، ابن أبي الدنيا، المكتبة الثقافية، الطبعة الأولىٰ (١٤١٣هـ).

٢٥. حوارات المسيري، تحرير سوزان حرفي، دار الفكر، الطبعة الثانية (١٤٣١هـ).

٢٦. حوارات المسيري، تحرير سوزان حرفي، دار الفكر، الطبعة الثانية، (١٤٣١هـ).

٢٧. الخصائص، ابن جني، المكتبة العلمية.

٢٨. الداء والدواء، ابن القيم، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولىٰ (١٤٢٩هـ).

٢٩. ديوان العباس بن الأحنف، دار الكتب المصرية، القاهرة (١٣٧٣هـ).

٣٠. ذيل الدرر الكامنة، ابن حجر، معهد المخطوطات العربية (١٤١٢هـ).

٣١. رسائل ابن حزم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولىٰ (١٩٨٣م).

٣٢. رسائل الجاحظ، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية.

٣٣. رسائل الرافعي، جمع وترتيب محمود أبو ريّة، دار إحياء الكتب العربية (١٣٦٩هـ).

٣٤. الرسائل المتبادلة، المعلمي، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولىٰ (١٤٣٤هـ).

٣٥. رفع الإصر عن قضاة مصر، ابن حجر، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولىٰ (١٤١٨هـ).

٣٦. سير أعلام النبلاء، الذهبي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة (١٤٠٥هـ).

٣٧. شذرات الذهب، ابن العماد، دار ابن كثير، الطبعة الأولىٰ (١٤١٣هـ).

٣٨. الشريعة، الآجري، دار الوطن، الطبعة الثانية (١٤٢٠هـ).

٣٩. صحيح مسلم، ت نظر الفاريابي، نشر دار طيبة، الطبعة الأولىٰ (١٤٢٧هـ).

٤٠. طبقات النحويين واللغويين، الزبيدي، دار المعارف، الطبعة الثانية.

٤١. طريق الوصول إلىٰ العلم المأمول، السعدي، دار البصيرة، مصر.

٤٢. العماديات، الواسطي، دار الكتب العلمية (٢٠١٠م).

٤٣. فتح الباري، ابن حجر، دار السلام، الطبعة الأولىٰ، (١٤٢١هـ).

٤٤. الفقيه و المتفقه، الخطيب البغدادي، دار ابن الجوزي، الطبعة الثانية، (١٤٢١هـ).

٤٥. الفكر العربي في زمن النهضة، ألبرت حوراني، دار النهار، ترجمة كريم عزقول.

٤٦. قواعد في السلوك إلىٰ الله تعالىٰ، الواسطي، الطبعة الأولىٰ (١٤٣٥هـ).

٤٧. كنوز الأجداد، محمد كرد علي، تصوير دار أضواء السلف.

٤٨. مجموع الفتاوىٰ، ابن تيمية، دار الوفاء، الطبعة الثالثة (١٤٢٦هـ).

٤٩. المحدث الفاصل، الرامهرمزي، دار الفكر، الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ).

٥٠. المحدث الفاصل، الرامهرمزي، دار الفكر، الطبعة الثالثة (١٤٠٤هـ).

٥١. مدارج السالكين، ابن القيم، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية (١٣٩٣هـ).

٥٢. مذكرة في أصول الفقه، الشنقيطي، مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الخامسة (٢٠٠١م).

٥٣. المستصفىٰ، الغزالي، دار الفضيلة (١٤٣٤هـ).

٥٤. مسند الإمام أحمد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ (١٤٢١هـ).

٥٥. مفتاح دار السعادة، ابن القيم، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولىٰ (١٤٣٢هـ).

٥٦. المنقذ من الضلال، الغزالي، نشر جميل صليبا دار الأندلس، بيروت.

٥٧. منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، جامعة الإمام، الطبعة الأولىٰ (١٤٠٦هـ).

٥٨. منهج المدرسة العقلية، فهد الرومي، الطبعة الثانية (١٤٠٣هـ).

٥٩. الموافقات، الشاطبي، دار ابن عفان، الطبعة الأولىٰ (١٤١٧هـ).

٦٠. النبأ العظيم، محمد دراز، دار طيبة، الطبعة الأولىٰ (١٤١٧هـ).

٦١. نضرة الإغريض، المظفر بن الفضل، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.